غادة السمّان

ليلُ الغُرَبَاء




منشورات غادة السمان

ـ لوحة الغـلاف الاول للفنـان رينيه ماجـريت ،رسمهـا عام ١٩٣٩
واسمهـا « تدرجات النار » .

ـ الخط وتنفيذ الغلاف للفنان حسين ماجد .

غـادة السـمّان

ليلُ الغرَباء

منشورات غادة السمان

جميع الحقوق محفوظة للمؤلفة
منشورات غادة السمان
بيروت ـ لبنان
ص.ب ١١-١٨١٣
تلفون ٣١٤٦٥٩
فاكس ٩٦١-١-٣٠٩٤٧٠

الرسوم الداخلية بريشة الفنان
فاروق البقيلي

الطبعة الأولى	:	حزيران (يونيو) ١٩٦٦
الطبعة الثانية	:	تشرين الأول (اوكتوبر) ١٩٧٣
الطبعة الثالثة	:	أيلول (سبتمبر) ١٩٧٥
الطبعة الرابعة	:	كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٧
الطبعة الخامسة	:	نيسان (ابريل) ١٩٧٩
الطبعة السادسة	:	كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨١
الطبعة السابعة	:	شباط (فبراير) ١٩٨٦
الطبعة الثامنة	:	كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٩
الطبعة التاسعة	:	تشرين الأول (اوكتوبر) ١٩٩٥

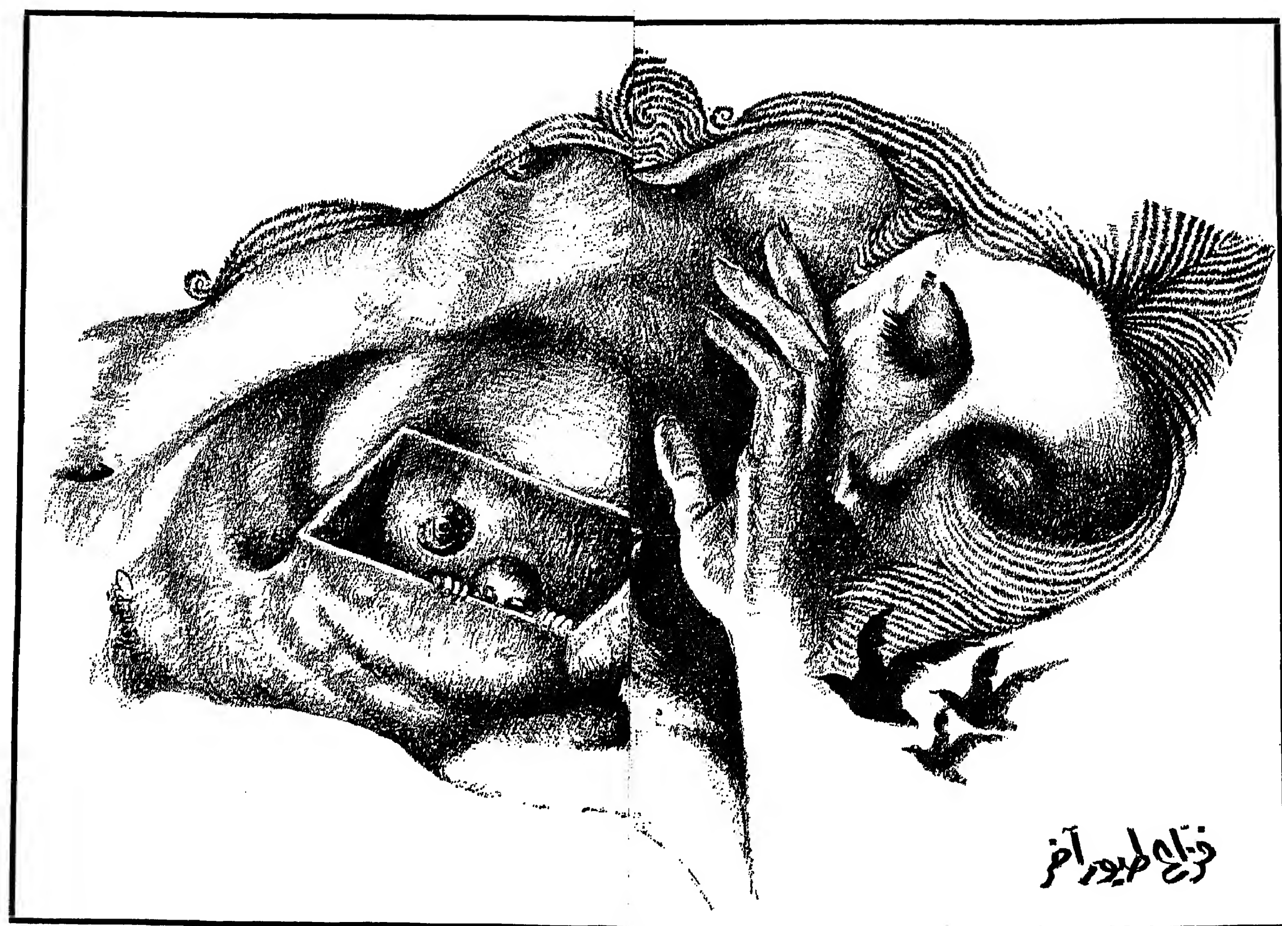
الإهداء

إليك

يا من جعلتني أعي غربتي

لك ، ولذكرى حكاية لم نعشها

غادة



To: www.al-mostafa.com

تمطر تمطر

تمطر برداً رمادياً وسأماً . تمطر منذ الصباح ، وعلى وتيرة واحدة .. على وتيرة واحدة ..

تزرعني في قطار بطيء يخترق صحارى شاسعة ميتة ، وركابه لا يعرف بعضهم بعضاً ، وكل منهم يتحدث لغة لا يعرفها الآخر ، ولا أحد يدري إلى أين يمضي ، أو من أين أتى ..

تمطر ببلادة واستمرار ...

والقطة لم تنقطع عن نواحها في الحديقة ... نواح خافت ملتاع .. أحسه نصلاً حاداً لسكين تنغرس ببطء واستمرار في بطني . لا أدري لماذا لا أجرؤ على التخلص منها ، كما لا أدري لماذا قتلتُ أطفالها منذ أسابيع .

(في الليل سمعت مواء فظيعاً .. كانت أول مرة أسمع قطتي المدللة تعول هكذا . تبعت الصوت . وجدتها في مرسمي ، قرب النافذة ، وعلى الوسادة خمس قطط صغيرة تتحرك ، وتزقزق .. خمسة أطفال هكذا للقطة ، ودفعة واحدة ! ... لا أدري لماذا انتزعتها رغم أظافرها المنشبة في يدي ، وفتحت

النافذة ، ورميت بالقطط الخمس منها ، واحداً بعد الآخر .. كانت لا تزال تنوح ، وكان في عينيها اتهام حاقد مخيف ... نظرة إنسانية كتلك التي قد تطل من عيني امرأة سحلوا أولادها أمام عينيها ... على جدران المرسم كانت عشرات اللوحات لعشرات الأطفال .. ووجوههم متشابهة كأنها وجه واحد لطفل لم يلد بعد ، لكنني أعرف ملامحه جيداً ... حتى أجساد الرجال في لوحاتي كان لها وجه ذلك الطفل .. حتى أجساد الازهار ، حتى أجساد الأشياء كان لها وجه طفلي الذي لم يلد .. وأنا أغلق الباب على نواحها سمعت أن مئات الأطفال في لوحاتي يبكون بمرارة وشراسة) ...

تمطر تمطر

تمطر أمسية جديدة كئيبة .. ليتها تنفجر رعداً .. تتمزق أحشاؤها برقاً ، تهذي رياحها في شقوق النوافذ وتصفر ، كي تخرس القطة ، ويكف السأم عن السأم .. أي شيء ، أي شيء إلا هذا الركود الميت الذي يصبغ أيامي في هذه الفيلا المخيفة . وهو ، رغم الصقيع مغروس على الشرفة منذ أكثر من ساعة بلا حراك ..

وفزاع الطيور مغروس في آخر الحديقة بلا حراك أيضاً ..

(انه صامت دوماً .. منذ زواجنا لم نتبادل الحديث إلاّ نادراً .. تراه يتحدث إلى فزاعي الطيور وأشباح الحدائق) .. يخرج لفافة جديدة (لماذا لا يقدم لفزاع الطيور سيجارة) في أيام زواجنا الأولى كان ذلك الصمت البارد يتعسني .. يرمي بي في حديقة صفراء حلزونية يموت فيها حتى الصدى .. في أيام زواجنا الأولى كان لا يزال قادراً على اتعاسي .. طالما بحثت

له عن اعذار بينما أنا أرسم وأرسم لوحات لأطفال ، وأتمنى لو تصرخ لوحة يوماً ، ويقفز منها طفل حي ... عشرات الاعذار « انه قاض ، وفي كل ما يدور ظلم لي .. ولكنه أيضاً رجل أعمال كبير .. ربما تسرب ذلك الجزء من شخصيته إلى علاقتنا .. عواطفه تخضع لقانون العرض والطلب .. ان تجهمت هش لي ، وان صمت أغرقني بفصاحة مفاجئة .. ان بدوت راغبة به استخفَّ بي ، وان أعرضت عنه اشتعل وجداً » ...

وتعلمت يومئذ كيف أحرق كلمات الحب الفائضة على شفتي كما يحرقون البن في البرازيل كي لا تتدنى أسعاره ..

سئمت طعم الرماد ...

تمطر بين جلدي ولحمي .. تمطر داخل عظامي .. في حلقي . فأعجز عن الاجابة على سؤاله الذي يصفع وجهي مع تيار البرد المندلق من الباب : هل اتصل الطبيب وبلغك النتيجة ؟

– لا .. لم ...

– من ؟ من اتصل اذن ؟

– هم . ينتظرونك .

سمعت صوتي قاسياً جارحاً .

ينتظرونك ، قلتها كأنني أطلق عليه الرصاص .. لكنه لم يترنح ولم يسقط صريعاً ، وإنما عاد يغلق باب الشرفة خلفه ، ويخرج إلى فزاع طيوره .. اسمعني أكرر : « هم » .. « هم » « ينتظرونك » ...

أراهم هناك ينتظرونه ..

أراهم هناك متحفزين . يدخل إلى الغرفة مجموعة من المتناقضات الناجحة .. عينان هرمتان وابتسامة طفولية ... الحركة الهادئة

لقاض ، والمظهر الرياضي لرجل أعمال وسيم ..

أراهم هناك يتأملونه .. ثم سيقولون شيئاً كثيراً .. سيتهمونه بشيء خطير .. سيتحدثون بشراهة ، كما تأكل الغربان لحماً من جرح مقيد لما يمت بعد ..

ولن يجيب . أعرف انه لن يدافع عن نفسه . سيظل يواجههم بالبرود نفسه الذي طالما احرقني ..

ثم سيتحدونه . لديهم شاهد اثبات . سيضحك باستخفاف . سيصرخ أحدهم في وجهه : اننا واثقون من التهمة . انك لم تدرس قط اضبارة متهم واحد .. كنت تهمل كل شيء ، المرافعات والأدعاء ، كل شيء .. كنت تدخل إلى المحكمة وفي جيبك مجموعة من الأوراق المطوية . وعلى كل ورقة كتبت كلمة : مذنب ، أو بريء .. وكانت أصابعك العمياء تختار في عتمة جيبك ورقة ما .. ثم تفتحها ، وتقرأ ما فيها .. مذنب .. بريء .. تبعاً للصدفة العشوائية .. هكذا بلا منطق ولا تبرير .. انه ظلم .

وستمعن ابتساماً وصمتاً ...

ثم ، الضربة الأخيرة : وشاهد الاثبات هو زوجتك !... ربما ، حينئذ فقط سيسقط اللجام عن فمك ، وربما ستصرخ في وجوههم كما صرخت في وجهي تلك الليلة الرهيبة منذ عام ...

... (كانت أيضاً تمطر ، ولكن بشراسة .

كنت لا أزال أحبك . أعجز عن النوم إذ لم أخف وجهي في صدرك .

كنت لا أزال اؤمن بأن في قاع بحار صمتك كنوزاً نادرة .

ضوء مكتبتك كان ينزلق تحت بابها المغلق ..

عارية القدمين تسللت اليك . قررت أن أعاجلك بقبلة على عنقك من الخلف اجرك بها إلى السرير .

ببطء أخرس كنت أتحرك وراءك . وقفت ، وقبل أن أنحني بقبلتي ، صعقني المشهد ..

فعلى المنضدة كانت هنالك عشرات من قصاصات الأوراق ، وعلى كل منها لا شيء سوى كلمة « مذنب » أو كلمة « بريئ ». أما المصنف الأسود الذي جئت به معك وقلت انك سوف تدرسه فكان على الأرض ، تحت قدميك !..

شهقت . وحينها التفت إلي ، ورأيت وجهك ، وتعبيره المرعب فهمت كل شيء .. في ثانية ، بسرعة التماع البرق أدركت كل شيء ... ظل وجهك متقلص الملامح ، يتفصد عرقاً .. إذن هذا ما يخفيه صمتك ؟.. لتقتل ، ظللت محافظاً على منصبك كقاض ، رغم نجاحك الكبير في البورصة ، ومن خلف ستار .. اقتربت بوجهك مني ، تذكرت الوجوه التي وصفها دانتي في جحيمه .. خفت .. أردت أن أهرب ... أمسكت بيدي وسمرتني .. عبثاً تملصت . أحسست انني بطريقة ما محكوم علي بالموت ، ولكنك لن تجرؤ على تنفيذ الحكم بنفسك ..

– لن تجرؤ

– يا غبية

– لن تجرؤ .. هذه جريمة تخلف دماً وجثة ..

– يا غبية

– وليست باسم العدالة ..

– يا غبية
– ولا تتقاضى لارتكابها راتباً .
– يا غبية .. الأمر أشد فظاعة .. أشد فظاعة ..
– المفروض انك تمثل عدالة الالهة ..
– اني أطبّقها على طريقتهم .. حاولي أن تفهمي
– هذا إلحاد . ما ذنب الالهة ؟
– اني أقلدهم ، باخلاص !
– وتسلم مصير الناس لعشوائية الصدفة ؟..
– الصدفة إلَه العالم ...
– أنت مجنون
– وأنت غبية .. ما تزال اللعبة تنطلي عليك ..

وأقنعت نفسي بأن اللعبة لم تعد تنطلي علي .. ان علي أن أصنع شيئاً أنقذ به مُثلي ، وآلاف المتهمين الذين تقرر الصدفة مصيرهم ... لكنني حينما أمر بفزاع الطيور في الحديقة ، كنت أدرك في ألم بالغ انني ربما أفعل ذلك كله لأن زوجي لا يحدثني ... ولأن حياتي صارت صحراء خاوية من الصمت الميت ، فإن جثة اندبها ، خير من فرحة لن تجيء !..

الهاتف . ربما كان الطبيب ، ربما يحمل إلي بشرى ما .. أظل جامدة .. لن أتحرك ، أخشى أن يكونوا « هم » الـذين « ينتظرونه » .. الخادمة « تفاحة » تدفع بطنها المنتفخ أمامهـا متدحرجة في الردهة . ترفع السماعة . تتمتم . تتقدم نحوي وهي تحمل الهاتف بإحدى يديها . كم هي بشعة ، بشعة ، بهذا الوجه الميت الذي يعبر عن لا شيء ، خطوات ثور حراثة .. وهذا البطن الذي ظللت أرقبه يكبر يوماً بعد يوم وينتفخ ، كيف

لا تتمزق عضلاته ويسقط إلى الأرض ويتحطم ما بداخله .. كيف استطاع أي رجل في العالم أن يضاجع بهيميتها ؟ كم هم مقرفون .. أمقتها ، يمزقني أن أتصور أن داخل الثياب الرثة المحيطة بترهلها طفل صغير !.. وهي تملكه ، وأنا لا أستطيع بكل ما أمتلكه ، وبكل الرجال الذين يتابعونني بجوع ، لا أستطيع أن أمتلك شيئاً كهذا !..

دقائق ، وأترك السماعة تسقط من يدي ...

إذن لن يكون لي طفل أبداً !... لن لن لن ..

هكذا بلغني الطبيب الآن ... حكماً قاطعاً غير قابل التمييز أو النقض ..

لماذا ؟ لا يدري ... لا أحد يدري ...

لماذا ؟...

فوق غيمة مشدودة إلى أفق معتم أرى مئات الأوراق التي سبق ورأيتها على منضدة زوجي ... مذنب .. بريء .. عاقر .. تنجب .. مذنب .. بريء .. عاقر .. تنجب .. ثم أصابع شيطانية عابثة ، تلتقط ورقة ما ... ثم يقول الطبيب : آسف .. عاقر ... وعلى الوسادة كانت القطة تضعهم دفعة واحدة ، خمسة أطفال ...

عاقر .. ربما كان لفزاع الطيور أطفال* مثله ولكنهم يكرهون الصمت ، لذا يرحلون مع أغاني طيور الحقول ..

تمطر تمطر ...

تمطر أنيناً خافتاً يتعالى شيئاً فشيئاً ... يتحد مع نواح القطة في الحديقة ... ونحن ثلاثة من فزاعي الطيور ، كل منهم مغروس بعيداً عن الآخر بلا حوار ولا لقاء .. من يئن ؟...

يدخل من الشرفة . لا يبدو عليه انه يسمع أي صوت غير عادي .. يقول انه ذاهب ولن يتأخر .

كعادته لا يسمع أي أنين . يمضي ، وأرى أوراقاً ممزقة تتطاير تحت قدميه « مذنب » « بريء » « مذنب » « بريء » ...

وحيدة في الدار ...

الأنين يتعالى .. من أين ؟... اني واهمة ... لا أحد في الفيلا المنعزلة سواي ، والخادمة ... وبيروت لم تشتعل الليلة في ركن النافذة ضوءاً بعد الآخر ... حوت الضباب ابتلعها .. ربما كان فزاع الطيور ينتحب ... تراه يحزن ؟.. يغضب ؟... يكره ، يثور ؟.. تراه يتحدث إلى زوجي « نجم » ؟... يتسلل كل ليلة إلى المكتبة بساقيه القصبيتين فيجالسه ويمزقان الاوراق معاً ويكتبان « مذنب » « بريء » ... لماذا لا يتزوج الزجال الصامتون من فزاعي الطيور ؟... لماذا يحكم علي بلا مبرر أن أسقط في الصمت ، ولن يملأ المكان طفل يصرخ محتجاً ، يمزق القناع عن وجه نجم ؟..

تمطر تمطر ...

والانين يستحيل صرخات متقطعة .. ربما كان أطفالي في اللوحات جياعاً .. حتى اليوم لم أجد الوسيلة التي أطعمهم بها .. ربما كانوا بحاجة إلى النزهة ، وإلى اللعب ... أطفالي سجناء اللوحات ، لماذا لا تطلق الآلهة سراحهم ليتدفقوا إلى العالم من جوفي ، ومن بطني ..

تمطر صراخاً ...

من يصرخ هكذا ؟... ربما كان الجسد في اللوحة التي لم أرسم وجهها بعد يحتج ...

اركض إلى مرسمي . اضيء النور . لا شيء ، لا أحـد سوى أطفالي العشرين مدقوقين إلى الجدران ... واللوحة التي لما تنته بعد تنتظر وجهاً ... النافذة مفتوحة .. والوسادة التي كانت القطة تضع أطفالها ... لا أجرؤ على الاقتراب من النافذة ... يخيل إلي ، ان خلفها في العتمة خمسة وجوه صغيرة لقطط أنيابها مدببة ، ولو أطللت براسي منها لغرست في وجهي اظافرها ومزقته ..

أهرب ..

لا تزال تمطر صراخاً ... الصوت ينبعث من هناك .. صوت يناديني أيضاً .. لست واهمة ... أكره ليلة الأحد حينما يذهب الخدم جميعاً .. « تفاحة » وحدها لم اعطها اجازة منذ رأيت بطنها يكبر .. أكرهها ، وأحقد على صبرها في تحمل تغذيبي . أريد أن تظل هنا ، لا أدري لماذا أحب أن أرهقها ، أراهـا تلهث تعباً ، تمسح عرقها الكريه الرائحة ، تتحرك كحيوان أبله ، وعبثاً أقنع نفسي ان في بطنها ماعزاً أو جـرواً أو فئراناً ...

المطبخ . ليست في المطبخ ..

غرفتها الحقيرة . ممددة على ظهرها فوق الفراش . يداهـا فوق بطنها الكبير . صامتة ، وعضلات وجهها لا تزال متقلصة بتأثير ألم لم أره قط يرتسم في ملامحها من قبل . وجهها مؤثر ومهيب ! ...

إلى جانبها السنارتان اللتان طالما شاهدتها تعمل بهما ، وتنسج ثوباً بعد الآخر ... وكنت أرى أيديَ غضة لأطفال صغار تخرج من ثقوبها التي لما تكتمل بعد ، وتنمو يوماً بعد يوم مع الحياكة

المستمرة ... أحس برغبة مجنونة في أن أغرس السنانير في بطنها ، أغرسها حتى تمزق أحشاءها وما فيها ... لماذا تصرخ ؟ السنانير ما زالت في موضعها . تفتح عينيها ، لثانية ، يلتمع فيهما انتصار انثوي مخيف ... انها تتحداني .. ثم تغرقان في عتمة ألم يرتسم في وجهها ممتزجاً بلذة عجيبة ... ألم راهبة تغتصب ، ويعذبها استمتاعها بذلك !...

تتمتم متوسلة .. تريد طبيباً ...

لماذا ؟ لماذا يحضر الطبيب من أجلها لا من أجلي ... والطفل لها وليس لي ؟...

شيء أسود يفور في أعماقي ، يمتزج بانتحابها ... فقاعات سود تنعقد ، تعلو ، تتدفق من حلقي ، من عيني ، من مسامي ، فقاعات سود من حامض كاو تغرق كل شيء ... كل شيء يهترىء يحترق ، أريد أن يهترىء كل شيء ، ان يحترق ، أريد أن أحتج ، أن أتمرد ، أن أغرق كل ما حولي بدمار حقيقي عابث ... لماذا .. لماذا .. ؟ من .. من ..؟ كيف .. ؟ متى ..؟ من .. من أصدر هذا الحكم علي ؟ لماذا أنا لن أتمدد قط على السرير ثم أنهض وعلى ذراعي طفل ؟.. لماذا لن أحس داخل بطني بدبيب أقدام صغيرة ، وجسد طفل يتقلب داخلي فأهب من نومي أتحسسه ريثما يملأ صراخه الدار ...

اظل أرقبها بوجه ميت .. أرقب الفقاعات السود تتدفق من عيني وتغرقها ... لماذا ، من ، من ، من يعبث بالاوراق ثم يبعثرها في الريح ، وتحملها عشوائية الصدف « عاقر » « غير عاقر » ؟ ما ذنب « نجم » ان كان قد فهم سريعاً ؟.. ما ذنبه ان كان مؤمناً بالحاده ، مخلصاً لفجيعته ؟

يا انا ..

تمطر تمطر خلف النافذة ... تراها تمطر أيضاً في بيروت ؟. لماذا لا تمطر في كل مكان في وقت واحد ؟...

من يوزع المطر والاطفال ؟.. من جعل من الصدفة عدالة ؟

تمطر تمطر

والخادمة تصرخ متوسلة ... منذ أسبوع وهي تتوسل من أجل اجازة .. اذن كانت تدري ...

أظل متحجرة ، أتفجر حقداً أسود ... بالفقاعات السود سوف أطمرها ... أهيلها عليها أتربة قبر تخنق صرخات الطفل داخلها ... ألمها يثير شيئاً يشبه الغيرة ، شيئاً أشد مرارة وأكثر وخزاً وبؤساً .. تصمت .

تروح في شبه اغماءة . أحس بحاجة إلى أن أرسم طفلاً !.. فلتضع طفلها وحدها . لا دخل لي في الأمر ... سأذهب أنا أيضاً إلى مرسمي وأضع طفلاً جديداً ... سأتم اللوحة . أمر بالهاتف وأتجنبه . من جديد يتعالى صراخها . يستحيل عويلاً ...

فلتصرخ ... لن يسمعها أحد في دارنا النائية في « البرزة » .. فلتمت ، وان استطاعت الولادة كما فعلت القطة ، لن أجرؤ على أن أرمي به من النافذة .. لن أجرؤ ، لأنني منذ تلك الليلة لم أعد أرى في وجوه أطفالي في اللوحات نظرات المحبة والالفة التي كانوا يغمرونني بها . صاروا يتجهمون في وجهي ولا ينشدون في الليل ... صاروا يكرهونني ويخافونني ... سألد الآن طفلاً جديداً ، أسكبه في لوحتي وأتخلص منهم جميعاً ...

صراخها يثير في أعماقي عويلاً مشابهاً ... عويلاً من الفقاعات

السود ، تياراً جياشاً من صخب ارعن متوتر كاو ... اني بحاجة لأن أرسم ... يدي تركض أمامي ... تجرني إلى المرسم ... أنا أسيرة يدي ... التيار الاسود يحرك يدي .. صراخها يثيره .. عاجزة عن السيطرة على أية عضلة في جسدي . يدي ترسم وحدها مجنونة هوجاء ، في الخارج تمطر بوحشية ، صراخها انتحاب ملاح مطروح على الشط تأكله « السلاطعين » .. يدي ترسم وحدها ، مجنونة هوجاء ...

تمطر بوحشية ... الرعد حقل الغام في الاعلى تفجره أقدام شيطانية .. البرق .. خائفة .. تصرخ .. خائفة .. خائفة ... شيء ما يقبع فوق عنقي من الخلف ... أظافر قطط شرسة أحسها تمزق لحمي .. خائفة ... في الحقل ملايين من فزاعي الطيور يركضون وقد حملوا المشاعل في موكب احتفالي مخيف .. والرعد حقل الغام لا حصر لها ... والبرق يتناوب الالتهاب على اطفال الجدار ... ارسم .. أريد أن أرسم طفلاً .. لا أدري ماذا أرسم ... وفزاعي الطيور يتجهون نحو النافذة ... والتيار الكهربائي انقطع .. وأطفال لوحاتي يكبرون بسرعة والبرق يحصد الوجوه ذات العيون المفقوءة...تتجمد وجوههم وتسقط أسنانهم على الأرض ويبيض شعرهم وينوحون ثم يستحيلون فزاعي طيور جدداً يقفزون من اللوحات ومن النافذة المفتوحة وينضمون إلى الجمع الهازج تحت النافذة ... الحركة المرعبة في صرخاتهم النائحة الهازجة ، والريح تضرب النافذة ، أريد أن أهرب لا أستطيع . يدي تقيدني إلى اللوحة فأرسم وأرسم وأعجز عن الهرب .. التيار الكهربائي عاد يضيء . عاجزة عن الهرب . ثم فجأة ، صرخة واحدة تدوي عند باب الغرفة .

المرأة الأخرى ، وخيط الدماء خلفها .

ويهدأ صراخ الموكب في الأسفل . أحس ان ملايين من فزاعي الطيور يتلصصون الآن من النوافذ بأعينهم المفقوءة صامتين في شيء من الخشوع الخجل ... المرأة الأخرى تتحامل على نفسها ، تدخل وتسقط فوق المقعد ، والوسادة نفسها التي وضعت عليها القطة الأخرى خمسة أطفال ... تراها هي أيضاً سوف تنجب خمسة أطفال ...

أراها كبيرة كبيرة ، عملاقة ضخمة ، في عينيها تحد آمر ، قوة خلق مذهلة لا تفسر ، وألم جميل مشع مرير ...

من جديد أعي الأشياء ...

هدوء مفجع قاس يغمرني ...

تريد طبيباً ، وإلا ماتت ...

وأنا الحاكم المطلق ...

عبثاً أتذكر مُثلي ، عبثاً أوقظ في نفسي عالمي الحلو القديم ، عبثاً أبحث عن وجهي الذي كان ...

في اللوحة التي رسمت دون أن أعي ، أجد وجهاً غريباً ... مزيجاً من وجهي ووجه نجم !... مزيجاً من القسوة والفجيعة حتى اللامبالاة ... ثم يخيل إلي ان اللوحة مرآة ... ابتسم فيبتسم الوجه في اللوحة ... أحرك شفتي فيحرك الوجه شفتيه ...

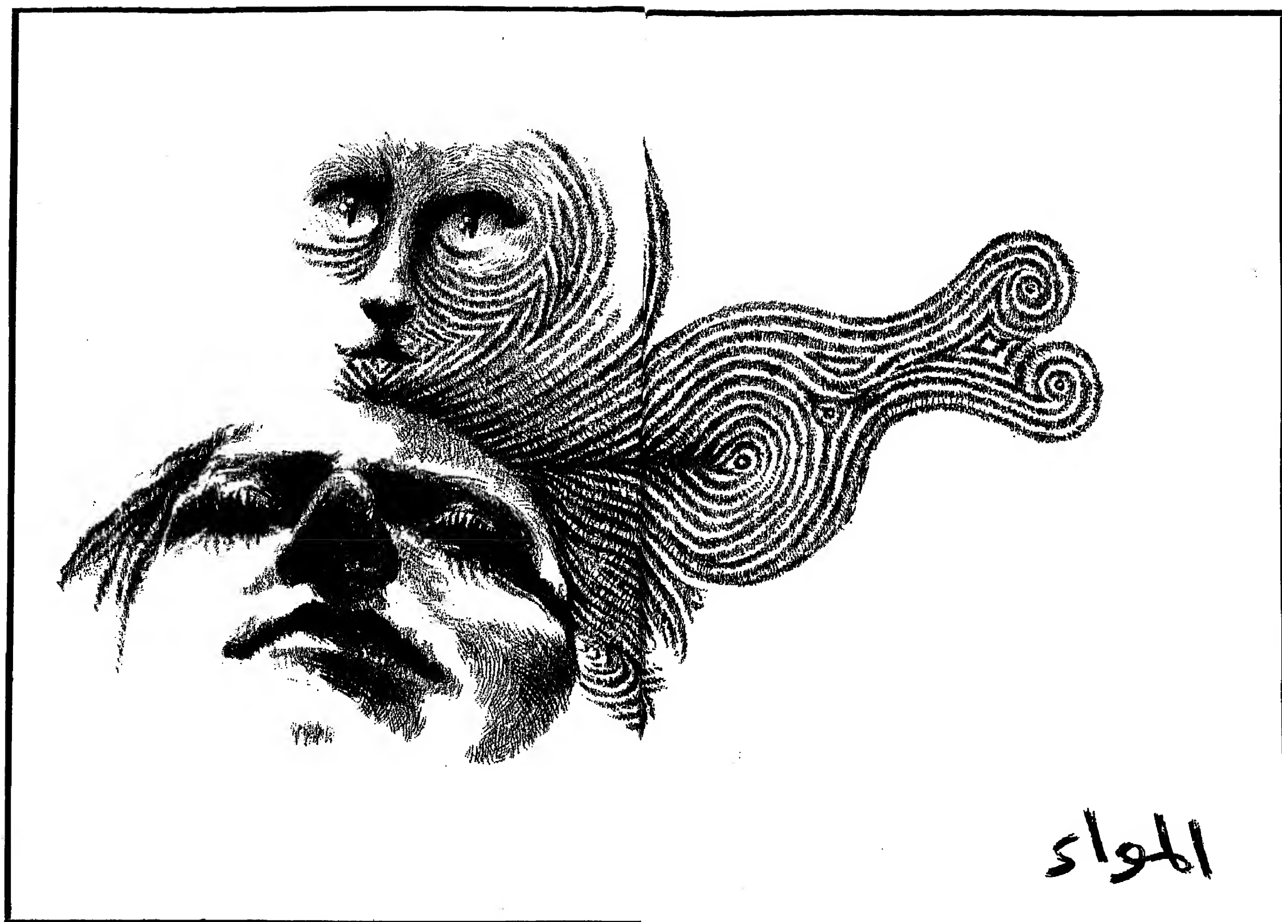
تعود إلى الانين الذي يستحيل صراخاً ... بماذا سأحكم ؟.. صقيع القسوة المفجعة يغمرني ... يتحجر داخلي ... الأصوات كلها تموت عند عتبة عالمي بهدوء حقيقي ، أخرج إلى غرفة مكتبة زوجي . أجلس حيث كان يجلس . أخرج ورقة بيضاء . أقطعها بعناية إلى قسمين . أكتب على الأولى « سأحضر الطبيب »

وأكتب على الثانية « لن أحضر الطبيب » . أطوي كل منهما . اضعهما في جيبي وأخلطهما ...

ثم أسحب واحدة منها .

أفتحها . وأقرأ « لن أحضر الطبيب » ... حكم قاطع لا يرد. لا أسمع أي صوت وأنا أدخل إلى غرفتي ... بهدوء وعناية أرتدي ثيابي . أحمل مفاتيح سيارتي . ولا أنسى أن أترك لزوجي ورقة كتبت فيها « أنا عند نورا ونيللي ... سوف نلعب البريدج مع بقية الشلة » .

تُرجمت هذه القصة إلى الايطالية والفرنسية والالمانية والانكليزية


الهواء

عاد المواء المتقطع . مواء مستمر مخنوق شاحب من هناك .

اقترب من النافذة وأطل على الهوة المظلمة : بئر من الجدران المكسوة بالهباب ، تقطعها بعض النوافذ المضيئة ، وأنابيب المياه والغاز السود ، وتبدو الاشياء بمجموعها كأحشاء بطن مفتوح .

الجدار المقابل لنافذتي مقصوص من أعلاه ، يطل خلفه شبح مرعب ، اكتشفت في النهار انه شجرة ضخمة ، ودهشت كيف يمكن لشجرة أن تعيش في وسط هذا الحي في لندن حيث يوحي كل ما حولي بالعقم !

عاد المواء مخنوقاً شاحباً ، وعاد الاختناق الدامي إلى حلقي . أحسست شيئاً ما في رقبتي يموء ، لاهثاً متململاً جريحاً ، مرافقاً لذلك الصوت الكئيب . ابتلع لعابي وأحاول أن أبتلع حنجرتي أيضاً .

التفت اليك مستنجدة . كنت وحدي في الغرفة .. منذ عشرة أيام وأنا التفت اليك ولا أجدك . لعلك الآن هناك ، بين جدران مرسمك العارية ، تستلقي تحت صدر العتمة في شرفتك العالية ، وفي الركن لوحة ما لم تتم بعد . ولا فرق بين أن تتم

أو لا تتم ، لأنك ستحطمها حينما تنتهي ، ككل لوحة رسمتها ، ستظل جدران مرسمك عارية وتظل شرفتك تطل من علٍ على المدينة كعيني نسر غامض !

ما زال المواء يختنق متقطعاً خافتاً لكنه مستمر ، فيه تحفز حيواني دافيء . إنه يشبه أنين لذة امرأة مكتومة الفم ، تغتصب عنوة .

أطل على الهوة . أعود لأتأمل النافذة العليا المواجهة لغرفتي ، نورها يسقط على الستائر الحمر المتباعدة قليلاً في المنتصف ، حيث يتألق شق طولاني من النور والستائر ترتجف بهدوء مع ريح لا أعرف من أين تهب وارتجافها البطيء يتواتر مع المواء الخافت المتقطع الذي لم يهدأ منذ عشرة أيام . يداخلني – ككل ليلة – ذلك الخوف المعتوه .

على بئر الجدران المكسوة بالهباب تتزلق نظراتي . النافـذة الملاصقة لنافذة غرفتي ما زالت مطفأة . إذن لم يعودا بعدُ ، ولم يسقط ظل عناقهما على الجدار والانابيب المعراة للشمس والريح والظلمة كأحشاء بطن مفتوح . وأنا التي ظللت أتسكع في الشوارع وحيـدة ، كي أعود ، بعد أن ينهكهما الحب، فيناما ، لعلهما العاشـقان الوحيـدان في هـذه القـارة .

(أين أنت يا حازم الآن ؟ لعلك في بارك المفضل في شارع فينيقيا ، تشرب ويافا تحترق في كأسك ، أو في فراش امرأة ما ، يديها حنان يديك بينما عيناك تفيضان مللاً ولامبالاة ، ووجوماً أقرب إلى غربة النسور المترفعة ، منه إلى الحزن . ربما تنادبها باسمي لأنك لم تسألهـا عن اسمها بعـدُ ، وقـد لا تسألها) .

بدأ الهواء في الأعلى يشتد ، يتلاحق كأنفاس سجين هائج ، والنافذة قد انطفأت والستائر الحمر اسودت كلون دم متخثر ، لكنها ترتعش في بصيص من الضوء الخافت . شبح يتحرك خلف النافذة . إذن فقد أطفأت النور وعادت لتلتصق بالستائر وترقبني . الستائر تخفق كقلب مجرم يتأهب صاحبه ليغرس سكينه في جسد محبه ، تماوج بتلاحق بطيء متوتر ، والهواء بـدأ يتسارع ويعلو .

هذه الفتاة الغريبة الملتصقة بالستائر والليل ماذا تريد مني ؟

يوم وصولي التقيت بها للمرة الأولى على الدرج ولم أكن أدري انها تستأجر إحدى غرف هذا الجحر الكبير .. لفتت نظري بمظهرها الغريب : قامة طويلة نسبياً ، بنطلون يضيق على ساقين نحيلتين ، وردف لا استدارة فيه كأرداف الرجال ، وصدر أملس ووجه جميل التقاطيع غريبها ، وشعر أشقر قصير يغطي عنقها من الخلف ويكاد يمس ياقة قميصها ، ثم وجدتني أتأملها بدهشة وهي تكاد تأكلني بنظراتها ، وأصابعها تتشنج وتضغط شيئاً فشيئاً على قطة سيامية سوداء تحملها ، ونظراتهـا تخمش جلدي البني ، وأصابعها الدقيقة تتشنج بوحشية على القطة السيامية التي بدأت تموء ، ونظراتها تسقط في فتحة عنق ثوبي ، وأظافرها تنغرس في جسد القطة التي يستحيل مواؤها شهقات محمومة هاربة من شق في جدار جحيم . أحسست برغبة في أن أبصق .

إذن فهي ترقبني كعادتها ، ترهف أذنيها لصوت اغـلاق بابي حينما أخرج كي تقفز بسرعة على الدرج وتمر من بجانبي كأن لقاءنا تم صدفة فتفوح منها رائحة عرق بارد كريه . أية موجة رمت بي في هذا العالم الرهيب ؟ والهواء ، وأنـت ،

(ترى أين أنت الآن يا حازم ؟) وعشرات العيون مستديرة لا أهداب لها ولا جنس لها كعدسات آلات التصوير ترقبني من خلف ستائر متوترة الارتجاف ، تفيض بالسأم والملل والعقم ...

الهواء يستحيل صراخاً متلاحقاً مشبوباً وستائر النافذة العليا تضطرب وتخفق ، وريح مجنونة تعبث بها . أنا مغمورة في برميل مملوء بالافاعي والعقارب الباردة (أين يدك يا حازم ؟) اهرع إلى نور غرفتي فأطفئه . استر هلعي بالظلام . أنا سلحفاة تأوي إلى صندوقها . لعلها الآن تهبط الدرج إلى بابي . صورتي مصلوبة في أحداقها الزرق : كيس نقود مدفون في حقيبة سفر ، جرذ آخر في الجحر الاسود الكبير حيث لا يجمعنا سوى درج خشبي واحد لولبي كأدراج القلاع القديمة التي تسكنها الأشباح .

اسمع الدرجات الخشبية تئن لوقع أقدام عليها . صوتها صرير أغطية توابيت تفتح وتغلق . الساعة على الجدار أمامي تسعل . حشرة تلسعني على رقبتي . سائل بارد ينحدر إلى شفتي ، (أين صدرك يا حازم ؟ خبئني ! خبئني !)

أنا وحيدة في جزيرة رعب : آلاف من الاجساد الرخوة تتسلق احشاء البئر وتقترب من نافذتي وتموء ، درجات الدرج تئن ...

الهواء ينبعث من قاع اللهاث المتعب ، يا أنا ، قرع على الباب . اعض على حديد قفص ما ، قرع على البـاب ، (هل أفتح الباب يا حازم ؟ وجهك مدفون في عنق طري أبيض وابتسامتك الساحرة تنفث القبلات) . اقترب من الباب ، أضيء النور أهتف : « مين » ، ثم اسأل بالانكليزية : من ؟

صوت ناعم : هذه أنا ... دزدرا .. هل كنت نائمة ؟
بارتياح حقيقي استنشق ما تبقى من الهواء في الحجرة . إذن فهي دزدرا . الجارة الصديقة ، وليست فتاة النافذة العليا . افتح الباب . يصمت المواء ، تهدأ الستائر في الأعلى ، تدخل دزدرا . عادت بهالة السواد حول عينيها .
تتأملني : ما هذا الاصفرار في وجهك ؟ هل أنت مريضة ؟
— لا ... متعبة قليلاً ...
— هذا طبيعي ، حينما تسجني نفسك في غرفتك ... لم يخبرني أخوك قبل أن يرحل مع «تانيا» انك مجنونة ، تعشقين الانفراد . قال لي انك لعوب ، وانك ستلتهمين شباب لندن في وجبة واحدة !
إذن فتانيا اسم واحدة من اللواتي أتعثر بآثارهن في هـذه الغرفة العجيبة . غرفة طالب شرقي في سلة شقراوات . الثياب الداخلية المنسية تحت المكتبة ، تراها لها ؟ الفراش القذر الذي قضيت يوماً كاملاً في غسله ، هل يحمل آثار حذائها ؟
وأخي كان يتوضأ إذا لمحني في ثياب النوم !
دزدرا ما زالت تتحدث بسرعة ، وتتحرك بسرعة . تتحدث كما يركض الناس في هذا الجحيم حينما يقطعون الشارع ، حينما يحملون صينيات الطعام ، حينما يرقصون ، كأنهم شريط سينمائي يعرض على شاشة أمامي بسرعة غير اعتيادية ...
تنهرني وتصرخ بي : ها ... أين أنت ؟ ماذا دهاك ؟
— لا شيء يا دزدرا ... كنت أستمع إلى الكونشرتو الأولى لتشايكوفسكي . انها ترمي بي بين موجات النهر الصغير الطيب الذي اعتدت عليه . أنواء هذا المحيط الأهوج هنا تمزقني .

تنفجر ضاحكة : أيتها الشرقية المدللة ... لو اضعت وقتي في عالم أحلام تشايكوفسكي لمت جوعاً !

لو كان الرجال يتركون بصماتهم على الوجوه لكان وجه دزدرا مغطى بالجدري ، وحلقتا سواد تحت عينيها . ارتاح اليها على أية حال ، من خلال وجهها المتعب كسحابة خائرة أطل على هذا العالم العجيب بشيء من المشاركة . لماذا جئت إلى هنا ؟

(ليلة رحيلي شددتني إلى صدرك .. وكنت استنشقك بجوع قديسة إلى الرجل ، أتخبط بنشوة في شباكك . أود أن لا أتحرر منها أبداً . همست : سوف أفتقدك ! وكان لصوتك رائحة أمسيات مبللة بالمطر . ووددت لو أبكي طويلاً لاستعيد طفولتي وأمني ، لكنني ظللت جامدة كما أنا دائماً حينما أتمزق . هربت الى الشرفة وكلماتك تصفعني : « انك لا تعرفين ماذا تريدين .. لا تعرفين ما تريدين » .

وقلت لك انني على الاقل « أعرف ما لا أريد » ، وضحكتَ : لماذا لا تخرجين قليلاً من صدفتك ، وتبحرين في المحيط حولك ؟ ستكونين أكثر قدرة على الامتزاج بما حولك ، والتعامل مع عالم الآخرين ويومئذ تقفين أمامي لأرسمك ، ما زلت عاجزاً عن رسمك ...

– لماذا ترسمني ؟ لتنتهي من اللوحة ثم تدمرها ، كي لا يبقى من قصتنا سوى فرشاة محطمة ، فوق أغطية فراش ملطخة بألوانك ؟ على أية حال سوف ارحل .)

القطة في أعماقي تموء . دزدرا تهزني : أين أنت ؟

– هذا المواء يا دزدرا يثير جنوني !

قلت لها ذلك وكنت أتمنى أن تعلق على كلامي وتوضح شيئاً من أمر فتاة النافذة العليا الغريبة وقطتها السيامية .

أجابت : اني استأنس بصوتها ... انه على أية حال أكثر عذوبة من صوت سقوط القنابل وصفارات الانذار !

– لا ريب في انك كنت صغيرة جداً يومئذ ..

– كنت كبيرة بما فيه الكفاية ، لافهم اننا كنا نجوع ليلة لا يشاركنا فراشنا الحقير شخص ثالث ..

– وأبوك ؟

– كان عليها أن تطعمه أيضاً ، وبيدها ، فقد عاد الينا من الحرب مشلولاً .

هذا العالم المثقل بتراث من الاحزان ، والمشاكل . ماذا سوى الهواء يهربون اليه يذيبون في إلحاحه بؤس غربتهم . أمّا نحن هناك في مدننا الهادئة ، ما الذي يشوهنا ، يطلقنا في دروب الليل بلا منارات ولا مرافئ ؟

(وكان وجهك متعباً ، ويداك تزيحان صحناً فاخراً من الحلوى وضعه « الجرسون » للتو .

قلت لي : الريجيم ... أمرني طبيبي بمراعاة ريجيم خاص ..

ثم ضحكت بمرارة : في القارب المعتم منذ سبعة عشر عاماً كنت أرتعد برداً ويافا عند الأفق تحترق ، وكنت ارتعد جوعاً ولما ابتدأت أبكي لطمني أبي بيد واحدة والأخرى تنزف سائلاً بارداً على كتفي . وتمنيت أن أخفيك في صدري حناناً ، لكنني وجدتني أقول : يخيل إلي انك ستظل تمزق كل ما ترسمه حتى تعود إلى هناك وترسم لوحتك الأولى التي تبقى !)

دزدرا تهتف : لا وقت للحزن يا عزيزتي . سيصل شارلز

بعد نصف ساعة وعلي أن أستعد. لماذا لا تأتي معنا إلى مقهى «ماكابر» ؟ إنه مكان طريف يجب ألا تفوتك مشاهدته في لندن .

– ومن هو شارلز هذا ؟ ظننتك تخرجين من داني ، ولم ينقض على فراقكما يوم واحد . قد يتم الصلح بينكما ، فلماذا الآخر ؟

– شارلز زميلي في العمل وأنا معجبة به منذ زمن بعيد ، وقد دعوته اليوم إلى السهرة .

– أنت دعوته إلى السهرة ؟

– أجل ، وماذا في ذلك ؟

– هل تحبينه ؟ وهل يحبك ؟

– يحبني ؟ أنتن الشرقيات تتمسكن كثيراً بهذه المفاهيم التي تجاوزها عصرنا . الحب ؟ كيف ؟ ليس في غرفتي شرفة كشرفة جولييت أقف عليها في الليل . إنني أعمل ثماني ساعات وأتحمل أحياناً قبلات رئيسي ورائحة اسنانه الاصطناعية كي أحصل على ١٠ باوند في الاسبوع . أدفع ٦ باوند منها اجرة لغرفتي التي تطل نافذتها على هذا المنور الاسود . وإذا فرضنا انني استطعت الحصول على غرفة ذات شرفة ودفعت ١٥ باوند ايجاراً لها ، لما استطاع شارلز الوقوف تحت الشرفة والعزف على جيتاره ، لأن السيارات المجنونة سوف تكنسه ، وإذا وقف على الرصيف فسوف تطحنه اقدام المارة الراكضين خلف آخر «اوتوبيس» في الليل ، لأنه إذا فاتهم سيكون عليهم أن يقطعوا المسافة ركضاً فيما لا يقل عن ساعات ثلاث ، أو يدفعوا اجرة تاكسي ويجوعوا في اليومين التاليين ...

تتحدث بسرعة وعيناها تلتمعان بجذل فأر اعتاد قذارة جحره وتتابع :

– أنتن الشرقيات لا تعرفن معنى الحياة الحقيقية : الجوع والرغبة والشهوة والملل والعقم ... كل ما يريده الرجل من امرأته هو أن تطبخ جيداً وتستحم جيداً .. انها نعمة على أية حال ترتعن فيها ...

عـاد المواء طويلاً متقطعـاً حزيناً ، كـأنـه ينبعث من بناء آخر نـاء في الطـرف الآخـر مـن العـالم ، **(ترى أين أنت الآن يا حازم ؟ أكثر من أية لحظة مضـت اعرف معنى ان أختفي في صدرك ومع ذلك ما الفرق بين ان ارحل أو لا أرحل ، ما دمنا في رحيل دائم أحدنا عن الآخر ؟ والحبل الذي يشدنا لا ينقطع فيرمينا ، ولا نريد أن يقصر ، فيوحد بين كياننا) .**

دزدرا تخرج وهي تقول برقة : سأقرع بابك قبل أن أذهب وأرجو أن ترافقينا إلى « ماكابر » .

ما زلت حائرة . هل أرافقهما أم لا ؟ لا أدري ماذا اريـد **(وأنت أيضاً يا حازم ، هل تعرف ماذا تريد ؟ لم تجب يومئذ . وسمعت في صمتك صوت تكسر أشياء تتحطم . انك سئمت كل شيء . لم تعد تبغي سوى أفيون تخدر به أيامك ، أو ... أو انك أقنعت نفسك بأنك سئمت لما اكتشفت ان الخيبة في آخر كل طريق ، وتسألني : وماذا بعد ؟.. وتركض كفرس أصيلة في السباق ، تقدمت كل من سواها لكنها تردد في سأم عند كل منعطف : وماذا بعد ؟ وماذا بعد ؟ هنالك خطأ ما في التخطيط لميدان السباق بأكمله) .**

المواء لا يهدأ . لعلها عادت إلى نافذتها لترقبني . الساعة تكاد تشير إلى العاشرة والسماء لما تظلم بعد . هذا الليل المشوه كم اكرهه . هذا الليل المجهض ، أين الليل الحقيقي في شواطئ بيروت .. وأنت ..

(والسيارة تشق صدر العتمة حتى وصلنا إلى الميناء وأشباح السفن في الليل تلتمع بأضوائها المتناثرة وتبدو البعيدة منها خيوطاً من نور .

قلت لي : هل رأيت الميناء في الليل ؟ ولم أجبك . لم أقل لك انني رأيت كل شيء قبل أن التقي بك . لكن كل شيء يبدو الآن جديداً ، كأن عالمك ما كان قط لسواك ، كأن الثلج الذي اندفه في دربك جديد ناصع لم تطأه قدم سواك من قبل ، ولن تبقى فيه سوى آثارك أنت من بعد . ومع ذلك صمت . كنت أعرف كم يمكن أن يضحكك مثل هذا الكلام ، فتتهمني من جديد بالانتماء إلى قرن مضى . وأنت ، إلى أي قرن تنتمي ؟ وحنانك الخارف الذي يشع من ومضات صغيرة ، من أسلوبك في رعايتي ، من اهتمامك ودفئك ؟) .

ضحكات على الدرج ... المواء الطويل صار وحشي العنف . لقد عادا .

لقد عادا إلى غرفتهما المجاورة ... الرعب نفسه ، الخوف نفسه . والمواء بدأ يتعالى من أعماقي حاراً مشبوباً ، أغلق فمي كي لا أسمعه ، لكنه يعلو ويعلو ويتدفق من مسامي ، من رقبتي ، من عيني شبه المغمضتين .

يغلقان باب غرفتهما . ضحكاتهما تستحيل إلى غمغمات .. التصق بالجدار الخشبي الذي يفصل بين غرفتينا كما أفعل كل ليلة منذ ليال عشر . أخشى أن يسمعا ضربات قلبي كما أسمع

صوت اصطكاك عظامهما . حذاؤها يسقط على الأرض ثقيلاً . الهواء يتلاحق بسرعة شرهاً مخنوقاً . اسمعهما يتنفسان كفحيح الحديد المحمى حينما يغمس في الماء البارد . الهواء في داخلي يستحيل ندباً مريراً . صرخة طويلة ، ويصمت الهواء ...

العرق البارد يتصبب عن الجدار الخشبي . أنا قنفذ وقفت أشواكه . عليّ أن أنتمي إلى هذا العالم ما دمت عاجزة عن العودة إلى القرن التاسع عشر . « ليلى » سئمت من مضاجعة اشعار « قيس » طيلة قرون ...

في الطريق قالت لي دزدرا وهي تلتصق بشارلز .: انتقي الليلة شاباً أشقر من شبان لندن حاولي أن تقضي معه وقتاً طيباً ! **(وقتاً طيباً ؟ ولكني عاجزة عن التمتع بصداقات القطارات . لا أستطيع أن أنسجم مع رجل لا أعرفه ، لا أستطيع أن أمنح جنساً مقطراً معزولاً عن مشاعري ، على أية حال سأحاول ، وقد أعود اليكَ امرأة أخرى) .**

في شارع سوهو ، مقهى « ماكابر » .

نهبط السلّم الحجري إلى المقهى .. صفير شبان مراهقين يقفون حوله . الفت الانظـار بسمرتي . أوقظ الهواء في غابة الرجـال بـين الرصيف وباب القبو .. ليتني ، الليلة ، أمزق الجـدار الزجـاجي ، وأنضم إلى العـالم حولي ، **(ليلة ضممتني للمرة الأولى خنقني بكاء أخرس ، توسلت إلى آلهتي التي تتعرى أن تكون بلا جسد ، كي يموت العري من العالم) .**

ندفع رسم الدخول . يمسك شاب بيدي ، بينما يغمس ريشته في محلول ما ويمر بها على يدي . في النور البنفسجي يضيء

موضع ريشته . انها شارة الدخول ، شارة وطاويط المكان ، وأحسني واحدة من يعاسب الحقول ، مضيئة وخفيفة ، وأحس برغبة في الانطلاق ، في الخبث ، في اثارة سرب من الجراد يلاحق نوري الخافت ، والمواء بدأ يترنح ويتناغم بهدهدة لذيذة في داخلي .

لا أكاد أدخل حتى أجدني في مقبرة .. مقبرة من نوع عجيب !

المقاعد توابيت سود عتيقة . الأضواء الحمر الخافتة تنسكب من خلال عظام هياكل عظمية وظلال اضلاع القفص الصدري تقطع المكان بحديد قضبان لا محسوسة ، والكؤوس التي يشربون منها على التوابيت جماجم بشرية . وفي الوسط ، تحت هيكلين عظميين متعانقين ، علقا في السقف ، ترقص مجموعة يصعب عليّ تمييز شبانها من فتياتها .. **(هذا الجيل الجديد في لندن يرعبني ، لرجاله شعر طويل ، ونظرات مخنثة لا تطاق ... ما زال الرجل في بلادي صلداً ، يثير حنين فتاته إلى انسحاق كامل ... ما زال يعاملها على انه هو الرجل ... على أية حال لا مكان لمثل هذا في مدينة يموت من لا يعمل فيها) .**

نجلس إلى تابوث غادره أصحابه للتو . الموسيقى دقات مطارق مسعورة .. العناق ... رائحة الخمر ... في الحلبة زحام ثيران يتدافعون في مصعد معطل .

دزدرا وشارلز وقفا يرقصان . الزحام لا يتيح لهما مكاناً للحركة .. المواء يتعالى من كل مكان ، وحشياً طويلاً ، مترنح النبرات كأن ينبوعه هنا في هذه المقبرة .. مقبرة القرون الماضية

وقيم الأيام الغابرة .

هنا مدينة الحب الجديد ، الحب الطحلبي ، من يتمرد يستحيل جمجمة يشربون بها ... المواء في داخلي يكاد يطغى على كل شيء .. زعيق مفاجئ للحن أوتاره مشدودة متوترة كعروق جبين متألم . أمسح العرق عن جبيني ، وأعب للمرة الأولى في حياتي من الكأس التي وضعت أمامي . السائل مر ، أستطيب مرارته . أمسح العرق عن جبيني . شاب يطـأ على قدمي . ألمها عن الحلبة . دزدرا ترتمي فوق شارلز . يتكومان على تابوت مجاور ، يزاحمان زوجاً بشرياً ينضح عرقاً ومواء . يتبادلان القبلات بنهم واستخفاف وبالمادية نفسها التي يلتهمان بها أية وجبة طعام **(حينما تقبلني أرفض أن أصدق انك تستعمل الفم نفسه للحب وللأكل ، وأحسني أسقط في غيمة مضيئة كثيفة ومنعشة أستسلم لكهاربها ، لبروقها ورعودها ، أطفو عليها ثم أغرق إلى قاعها ، أتمسك بك بتشنج غريق في نهر مقدس ، واستسلم لك بلذة لحظة الموت ... لحظات لا تمنحها سوى شفتيك أنت ... أنت وحدك) .**

يستحيل المواء قهقهة . أعب من الكأس أمامي ، أسكب نارها المر دفعة واحدة .

— هل تسمحين بهذه الرقصة ؟

بصعوبة أسمعه .. أتأمله .. شاب نحيل طويل السالفين ، شفتاه منتفختان بجوع زنخ ...

في التابوت تحتي أحس أنين امرأة ما حنطت لأنها رفضت أن تعيش حياة ما فوق التابوت . لا مفر من الاختيار . ماذا

يدعم غبائي في وادي المواء هذا ، وذاتي المشتتة على طول قرنين من الزمن ؟ فلأرقص .

انهض . يتعالى المواء بوحشية . اهتز بتراث امرأة شرقية ، عاشت قروناً في الحريم تتعلم كيف تثير حينما تتحرك. أمامي يقفز كشيطان في وليمة البدائيين . أضرب الأرض بقدمي ، النور ينسكب مترنحاً من الجماجم .

من مسامي يتفجر العرق والنحيب والمرارة ، لكنني لـن أهزم . لن أنسحب إلى التابوت . أتلوى ، أحاول أن أقطع قيوداً لا مرئية . أرقص ، أحاول أن أحطم جداراً ، أن أجتاز جسراً جئت من طرفه المغمور بالغمام ، واتجه إلى طرفه المغموس بالدم والمواء وقرع المطارق .

تنتهي الرقصة . أعود إلى التابوت وأجلس عليه ، يخيل إلي ان المرأة في داخله تقهقه ، تثير جنون موائي... وأحس بأنني أحقد عليها .. «جوليبت» عصر الذرة ..

أراها خلال خشب التابوت . لها وجهي . لكنها تبكي ، وأنا هنا امرأة خرجت للتو من مصنع البشر الآليين ، وجاءت إلى مخزن الحب لتشتري علبة معبأة بالجنس ، تطهيها بسرعـة وتلتهمها ، ثم تمسح آثار المائدة ، وينسى ما كان في أقل من ليلة

دزدرا تهزني : لماذا لا ترقصين ؟

– لم أعجب بأي شاب بعد لأدعوه إلى الرقص !

الليلة ، الآن ، سأدعو شاباً ما إلى الرقص ، ثم إلى العشاء وأذهب به إلى أفخر مطاعم المدينة . وإذا جاءت العجوز التي تبيع زهوراً للعشاق فسأبتاع له زهرة حمراء ، يزين بها شعره

الأشقر الطويل الناعم . وإذا أعجبني فسأرافقه إلى غرفتـه ، وأبقى معه فترة ما ، ثم أترك له على المنضدة قبل أن أمضي ورقة نقدية مناسبة . العلاقات الجديدة ليس فيها رجل وامرأة . فيها طرفان ... أي طرفين .

وفجأة أراها ، فتاة النافذة العليا . المواء يتشنج ، تراني . وتقترب مني ، رغم العتمة النسبية ، تتبينني كأنها تعرفني من رائحتي كأي حيوانين في الظلمة ...

دون أية كلمة تجلس على التابوت إلى جانبي . المواء يستحيل ضربات طبول . ايقاعات أجساد عارية مشدودة تؤدي رقصة بدائية عتيقة في غابة تتعالى من أركانها المعتمة صوت المواء .. ما الفرق بين هذه الفتاة وذلك الشاب الذي طلبني للرقص منذ لحظات ؟ **(ما الفرق وأنت يا حازم ، أنت وحدك تثير في نفسي احساسي بأنوثتي ، ومعك وحدك أستحيل امرأة ... أما الآن فلا جنس لي ، لا جنس لي على الاطلاق) .**

صامتتان . نصعد الدرج الخشبي . لا نتوقف أمام بـاب غرفتي ، نتجاوزها .. أمام باب غرفتها نتريث برهة ريثما تفتح الباب .

في مواء القطة نشوة فرح مكتومة . تضيء النور . غرفـة حقيرة كل ما فيها جائع : الجدران جائعة للطلاء والمقاعد للكساء وعلى المنضدة في الزاوية بقايا خبز وجبن لوليمة كانت منـذ البداية بقايا .

مواء القطة يتشنج ويعلو . الستائر ترتجف ، الفتاة الرجـل تسرح شعرها أمام مرآة فيها شرخ طولاني كبير يمزق وجهها

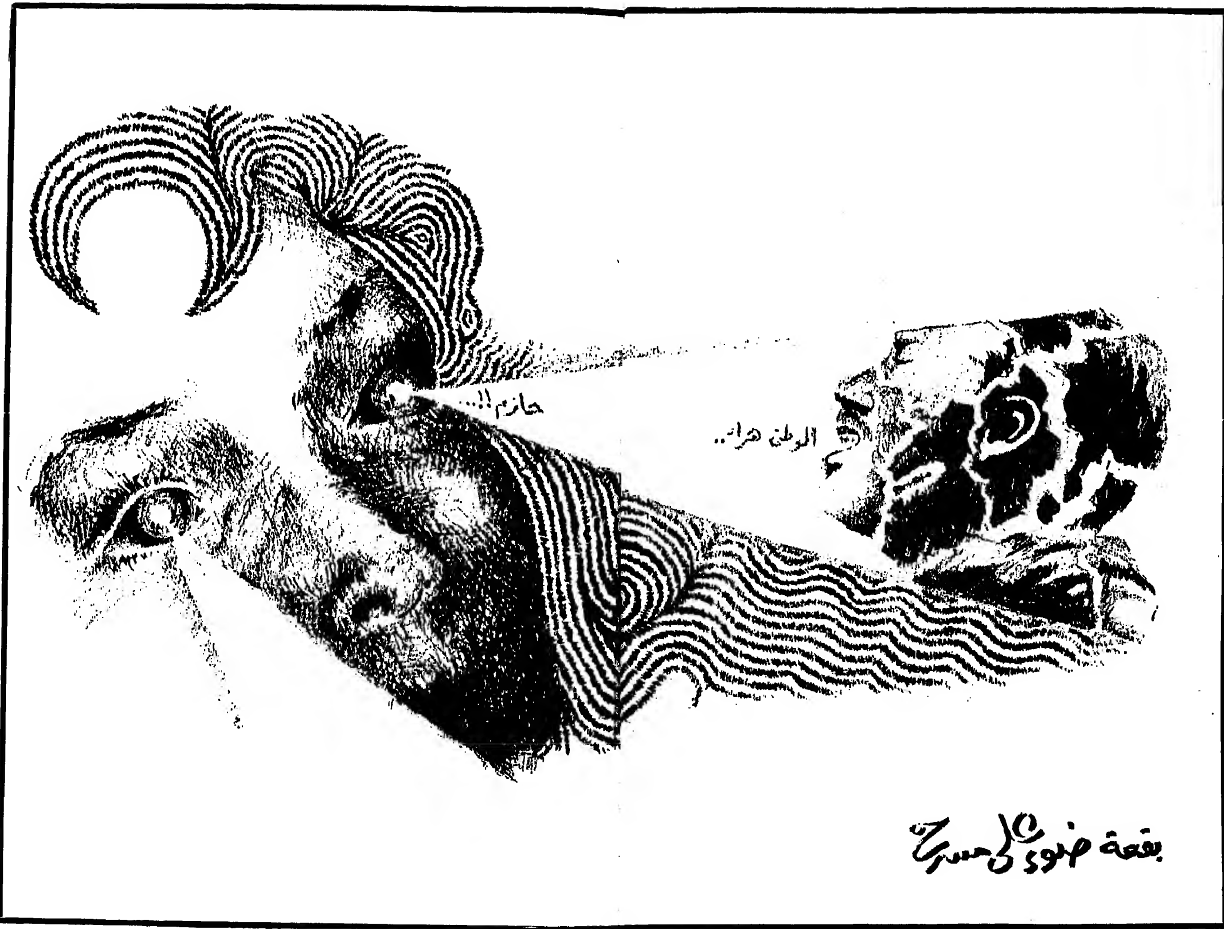
إلى شطرين .. لا أحس بأي خوف .

صمت كامل مشحون بالترقب ، حتى الهواء في الداخل يصمت ، منضدة خشبية إلى جانبي أستند عليها ، (**لا ريب في أنهم يتركون لها النقود هنا كل فجر**) علبة سجائر تخرج منها واحدة لها وأخرى لي ... تضع لفافتها بين شفتيها المهترئتين وتشعلها . تمسك بها في يدها وتقربها من الأخرى التي وضعتها في فمها لتشعلها . تلتحم السيجارتان عند طرفين متوهجين كالجمر . أجدني أتاملهما . أهذا كل شيء ؟.

وإذا رضيت بأن أعيش في مدينة تحولنا إلى سجائر متشابهة ، فهل أرضى بأن يكون هذا كل شيء ؟ مجرد لقاء الجمر بالجمر ، ريثما تنتهي السيجارة في دقائق !

أحس برغبة في أن أصفع شيئاً ما ، أكسر شيئاً ما ، يدي في جيوبي أبحث عن نقود . أترك لها على المنضدة عدة أوراق وعدداً من القطع الفضية . أفتح الباب وأخرج ، وأغلقه خلفي بعناية ويلاحقني صدى الهواء من جديد .

تُرجمت هذه القصة إلى الفرنسية


حازم!!...
الوطن هنا..
بقعة ضوء على مسرح

كانت هنالك بقعة ضوء تتحرك على الجدران ، وعلى احجار الزقاق الناتئة ، باحثة عن وجه ما باصرار عنيد ...

« حازم .. حازم اين أنت ؟ »

وكان صدى صوتي حاداً ملتاعاً ، يثير شفقتي ، ثم احتقاري !

« حازم ... يا حبيبي ! »

والبرد الرمادي تنفضه المصابيح المحتضرة ...

« حازم .. أين أنت ؟ »

والزقاق الطويل ، أتعثر بأحجاره النافرة ...

« حازم ، أين يدك ؟ »

والزقاق الطويل لم أدرِ كم سيصبح موحشاً ، إذا لم أجدك في انتظاري ، كعادتك عند الدرج العتيق .

« حازم ، غداً العيد ... اقرأ ؟ »

واشهر بيدي رسالة أبي لأعرضها عليك . ولكنني لا أجدك في ركنك ، ويغمرني احساس غامض مفجع بأنك لست هنا ، ولن تكون قط هنا ، فأشد على بقايا الرسالة بقسوة ...

وفجأة ...

تستحيل حروفها مفرقعات صغيرة من مفرقعات العيد ، تنفجر داخل يدي واحدة تلو الأخرى ...

« حازم ! »

وإذا بالزقاق ، الذي كان إلى ما قبل لحظات ، مسترخياً بأهله النيام كبطن متخم كسول ، يتفجر فجأة مع تفجرات الكلمات داخل يدي ، ويستحيل دنيا من الشرور المفاجئة ، يتوهج بنيران مجهولة المصدر ، مسعورة الشرر والزعيق ...

أبواب الجيران وأهل الزقاق تفتح ، وينسكب الناس من الاسطح أيضاً ومن المداخل وعلى أنابيب المياه ، يندفعون في موكب رهيب ، موكب عجيب مريض الثورة : ليس فيه ضحك أو بكاء أو نباح أو هتاف بالضبط ، فيه هذه الاشياء كلها مختلطة بلا ضابط ، أو منطق ، أو هدف .

مئات من الغارقين في ملابس تنكرية ، عجيبة التناقض ، والمسدسات تنطلق وحدها ، وكل شيء ، أسير لعنة وباء أسود ، رهيب الهذيان شرس التدمير ..

« حازم ! »

وهم يحملونك مع مجموعة أخرى من الرفاق إلى حيث لا أدري ...

والزقاق بوتقة من النيران والفوضى والهياج تخضها يد مجهولة شريرة ..

« حازم ! »

واستحيل أرنباً صغيراً عبثاً يركض بين الجموع ، ويقرض الايدي والاقدام والرقاب ، ويسقط ، يقفز ، يتمزق ،

يركلونه ، يقفز ، وينوح عند الدرج العتيق ...

« حازم ! »

وفجأة ...

تموت الأصوات والألوان وكل شيء ..

جثة ليل عتيق تغطي ما كان زقاقاً ...

لا لون ، لا هبّة ريح ، لا بصيص ، لا ذكرى ، لا شيء .

وأنا أرنب صغير ، لا يدري لماذا يقفز ويشمشم الأرض ..

الأرض رماد !

وتحت كومة من الرماد أجدك مدفوناً حتّى العنق ...

وتصحو الروائح والألوان والابعاد ، وتصير الأيام قطيعاً من الارامل يندبن أحبابهن الشجعان في موكب دامع الاناشيد.

« حازم ... لم أدر كم أحببتك حتّى فقدتك ! »

لم أسمع صوتي ، وتذكرت انني صرت أرنباً صغيراً ، فوق الرماد الذي دفنت تحته . أعدو مسعورة ملهوفة .

عيناك ، كما أعرفهما ، تمطران غموضهما الساحر المحبب .

احفر التراب حول عنقك .

احفر نفقاً ، أتسلل منه إلى صدرك . ارخي بأذني الطويلتين سوف أغفو كعادتي هنا حيث أحب ، بين ابطك وصدرك ، ولكن ، هنالك ثقب ينزف منه الدم بوحشية .

ثقب ينزف منه الدم بوحشية هنا في صدرك ...

لم أعد أرنباً .

أنا نابان يقطران دماً وصراخاً : « حازم ! حازم ! »

يغمرك الرماد تماماً .

يعود كل شيء كما كان : الزقاق الطويل ، الصمت ، الأبواب المغلقة على الناس النيام ، والبرد الرمادي تنفضه المصابيح المحتضرة .

لم يبق إلا همسة غامضة المصدر ، تخفت حتى تموت ، تهتف باسمي : مادو ...

وبقعة ضوء تتحرك ببطء في ذلك المسرح الميت الحزين ...

وصرخة تمزق الهدوء الدامع من وقت إلى آخر : حازم ! حازم !

أفتح عيني وأنا ما زلت أصرخ «حازم» .

. . .

أحاول أن أخنق بقية الصرخة . أخي الواقف في الغرفة شبه المعتمة يتأملني بعينين خاليتين من أي تعبير . أمام مدفأة غاز صغيرة ، يتابع ارتداء ثيابه بسرعة وصمت ، ولكن بقايا وجه حازم الممزق — كما رأيته في ذلك الحلم المرعب — ما تزال عالقة بين أهدابي ، وهمسته «مادو» تطلق من نقطة واحدة في أعماقي آلاف الاسهم ، وفي كافة الاتجاهات تمزقني ، تفتتني .

لو خطر لأخي سليم أن يداعبني كعادته ويكشف الغطاء عني في هذا الصقيع ، ليستمتع بملحمة من شتائمي الوطنية المهداة اليه وإلى برد لندن ، لصعق ، ولرآني أنزف بمسامي كلها ولهرب مذعوراً !

لكنه لم يكشف الغطاء ، وظللت مدفونة تحته مع خمس زجاجات معبأة بالماء الذي كان ساخناً .

يحمل أخي كتبه ، وفي وجهه تعبير يقول انه تأخر ثانية على موعد الدرس ، ومع ذلك يتلكأ أمام الباب . هنالك ما يود أن يقوله :

– لم ألاحظ أن خبر خروج حازم من السجن ، ووصوله إلى هنا للالتحاق بعمله في السفارة ، قد هزك هكذا !

– ...

– لم يبد على وجهك أي تأثر حينما أخبرنا « نادر » ان حازم يقاسمه مسكنه ، ريثما يجد شقة مناسبة ...

– ...

– ولم يبدُ الاسف على وجهك حين أخبرنا نادر ان حازم اعتذر عن مرافقة الاخوان والاخوات إلى دارنا الليلة ، للاحتفال بالعيد ...

– ...

– كنت تعرفينه جيداً ، أليس كذلك ؟

– ...

ماذا سوى أن أمعن صمتاً ؟!

(أجل ! عرفته جيداً كما لم يعرفه أي انسان . يا للفجيعة كم عرفته ، حتى استعبدتني تلك الومضات المضيئة في اطلالته على الأشياء !)

واستطرد أخي يقول : ثم انني لا أستطيع أن أفهم لماذا لم يتصل بك ، رغم انكما تعرضتما للموت معاً أكثر من مرة على ما سمعت .

(أجل ! ان لم تكن رابطة الحب والحياة ، فمن أجل رابطة الموت . ليلتها سمعنا الصفارة . التصقنا بالجدار الرطب

في الزقاق العتيق ، والقنبلة الموقوتة بين جسدينا تنبض ، ونحن نزداد التصاقاً كي لا نسقط إلى الأرض . ونزداد اندساساً في رحم الجدار الرطب اللزج .

ومروا بنا . كان لا يصدق انهم لم يرونا . ظننتهم يهزأون يعنون تعذيباً ولكنهم لم يرونا فعلاً !

كان لجسده تلك المرة طعم الجدار الطحلبي الرطب . وقد انصرفت بسرعة أحمل التعليمات ، وكدت أصفعه لما قبلني ، أحسست قبلته جزءاً من المهمة ، وكفرت به لثانية . وحزنت من أجلنا ، فقد حولتنا « مهمتنا الانسانية » إلى حجارة شطرنج بلا عواطف انسانية . ها قد ماتت الشهوة . وماذا بعد !)

— حازم يعرف جيداً انك هنا .. ان ذلك لا يصدق . لقد تعمد نادر ان يروي له مطولاً عن سهراته في دارنا حيث يشاركني تحضير الدروس ، وتعمد أن يحدثه عن دورك الكئيب في أمسياتنا ، ان ذلك لا يصدق !

(وأنا أيضاً لا أستطيع أن أصدق أو أفهم منذ ذلك اليوم ، حين القمت آلة الاسطوانات قطعة نقدية جديدة في ذلك المقهى العتيق في لندن . وربما للمرة العاشرة ، علا أنين المطرب « هجرت مدينتي ... هجرت شمسي ... هجرت سمائي الزرقاء ! »

تأفف بعض اللندنيين . حدقوا في وجهي باستنكار . أخفيته تحت نظارتين سوداوين كبيرتين ، وأشحت به عن مشهد الدموع التي كانت تغافل عيون بعض الغرباء ، المحروقي البشرة ، الذين هجروا مدينتهم لسبب أو لآخر . ولمدنهم شمس وسماء زرقاء ، وليست كهذا الجحيم ...

فتح نادر الباب يومئذ ، ودخل يلهث فقلت له :

ــ أين أخي ؟ لماذا جئت وحدك يا نادر ؟

ــ خبر لا يصدق .. حازم وصل !

خشيت أن أصدق فأموت .

ــ هو هنا منذ أيام ثلاثة !

خشيت أن أصدق فأموت .

ــ كان معي منذ لحظات . سوف يقاسمني مسكني . وقد أخبرته انك موجودة هنا ، في مقهى « التوسكانا » .

لن أصدق .

ــ ولكنه اعتذر لأمر هام ، وذهب !

خشيت أن يرى نادر في وجهي اني صدقت . لذا انطلقت راكضة في الزحام . وطيلة أسبوع ، كنت اندس في الزحام هاربة ، فرحة بالمطر الذي يجعل الوجوه جميعاً تبتل كوجهي ، لأنني أيقنت من ان حازم يتجنبني ... وأنا أيضاً لا أستطيع أن أفهم الآن أي شيء !

ليلة ذهب حازم ولم يعد ، عرفت انه في السجن . وكنـا يومئذ معاً في مدينتنا .

ليلة غادرت مدينتي ، فهمت لماذا غادرت مدينتي ...

والاشهر المريرة هنا في لندن والانتظار الوحش ، كل شيء كان مفجعاً وقاسياً . لكنه أيضاً كان واضحاً ، ومنطقياً . وفي نهاية النفق كانت ما تزال نقطة من نور هي اليقين ، هي الايمان القاطع النهائي بشيء اسمه قضية !

أما الآن وحازم هنا ، وحازم يتهرب مني دون أن يقول

كلمة واحدة . وهذه المقايضة الغامضة . الآن اختلط كل شيء وعمت الفوضى !)

وعاد أخي يقول : على أية حال ، حاولي ألا تفوتك سهرتنا الليلة . سيجلب كل منهم معه صنفاً من أطعمتنا يعده بيده ، واسطوانة ، وصورة ، وممنوع التكلم بالانكليزية ، بل بلغتنا العامية فقط . سنقضي عيدنا وكأننا في مدينتنا !

(وكان حازم يحب مدينتنا كما لم يحبها أي انسان .

وكانت أصابعه تكاد تنغرس في ذراعي ، وأنا أكاد انغرس في صدره ، والغروب يغرس حرابه في كل شارع وسطح وحقل ونحن نطل عليها من أحد المرتفعات .

كان يردد : أعبدها ! أعبدها !

ــ حازم .. أحس بأنني أملك العالم كله .. اني سعيدة !

ــ أحس بأنني جزء من العالم كله . ذلك ما يسعدني !

ــ أنا أملكه !

ــ أنا انتمي اليه ، وبذلك املكه !

ــ انا املكه !

ــ وأنا أفكر بآلاف الرجال على اكتاف آلاف المدن الأخرى ، وقد ضموا اليهم حبيباتهم كما أفعل الآن . ذلك الاحساس سوف يستعبدنا لتلك الأرض أبداً ..

ــ أنا أملكه !

ــ وأنا أحس بانتمائي إلى الملايين في ملايين المدن الأخرى . الاحاسيس المشتركة الصغيرة التي تربط كلا منهم إلى شوارعها ومدارسها وملاعبها وحاناتها ..

– أنا أملكه !

– ليست المشكلة أنا وأنت . المشكلة اننا نفقد وجهنا حينما تتسخ مدينتنا ، ونموت إذا تشوهت أو انتحرت ، اننا ندافع عن أطفالنا حينما ندافع عن قيمنا .. اننا ندافع عن أنانيتنا حينما نفتديها ..

– أنا املكه !

– أجل ، تملكينه يا عنيدة ... حازم تملكينه !

ثم شفتاه تنفثان الشهوة المخمورة . مهارته في الصمت أيضاً لا تجارى !)

ويقول أخي : هل سمعت مـا كنت أقوله ؟ مادو ... هل سمعتني ؟

– اجل ! اعني ، لا .. لا يا سليم آسفة !

– لا ألومك . باختصار ، ليس عليك اعـداد أي شيء للمساء . صاحبة البيت موجودة هنا ، تنظف الشقة . وسوف تتقاضى « باوند » كامل عن الساعة ، فاصرفيها بأسرع وقت . وأرجو ألا تتخلفي مساء كعادتك !

(دوماً أتخلف مساء ...

أكره أن أراهم ينهارون واحـداً بعد الآخر : سليم ونادر وعزيز وزهير و .. يتجاهلون المعنى الحقيقي لما يدور .

يشاركون بعضهم البعض في التستر على سقوطهم المفجع .

أكره المشهد المعتاد : أخي جالس إلى منضدته ونادر يشاركه حل مسألة ما ...

يقولان انهما انتهيا من الدراسة .

To: www.al-mostafa.com

سليم يمسك بأوراقه ، عبثاً يحاول نظم قصيدته : « لأننا بلا مدينة .. »
منذ وصل إلى هنا وتشاغل بالدرس وهو يكتب ويمزق ..
صديقته ماغي ، فأر طيب أزرق العينين ، يتشاغل عنه بقرض كتب « ايان فلمنغ » ..
هي تقرأ ، وتشرب .
وهو يشرب ، ويكتب ، ويمزق ، ويمزق ...
ثم يفتح طرداً وصل مؤخراً فيه كل ما يصدر من نتاج يزوده به صديق وفي باستمرار ، وينكب على أوراقه من جديد ، يخط فصلاً جديداً في مؤلفه الذي يعده للطبع ، والذي ينقد فيه كل ما يصدر من نتاج .
يكتب النقد بخنجره ، كأنه ينتقم من قصيدته الحبيسة في جوفه . قصيدته التي يعرف كما أعرف . انها رائعة ...
يحزنه ان الحراء تبقى ، واللبوة تجهض !
ونادر مع شقراء جديدة ، المهم أن يكون شعرها طويلاً ، لأنه يقضي بقية السهرة يشرب . ويضفر شعرها كما تفعل الفلاحات في قريته !
وانا ... يا انا ...)
الراديو . فليتكلم أي صوت خارجي ويخمد ذلك الشريط المؤلم في داخلي . الراديو ، أمد يدي وأدير زره . رسالة أبي ما تزال بين أصابعي منذ الليلة الماضية ، لحظة استلمتها قبل أن أهرب بها إلى فراشي . الراديو ، لا أدري ماذا يقول . ولكن الرسالة تقول : « العيد ... »
ما العيد في دورنا وشوارعنا ؟

الليلة ، من يسقط في طنجرة السكر المغلي ؟

(أمام باب المطبخ ، وقف أبي واخوتي يضحكون بشدة ويشيرون إلي ، بينما سارعت أمي لانتشالي من طنجرة السكر المغلي (القطر) . وزادت ضحكاتهم وهم يشاهدون آثار زحفي على مفرش الحلويات الكبير ، حيث التهمت في طريقي فوقه نفقاً من الحلوى ، وكنت أقطر بالسكر دون أن أتخلى عن « البالون » في إحدى يدي ، لما اختطفني أبي منها وهو يقول : هاتها ، دعني آكلها !

ثم رفعني عالياً . وخلف الخص الخشبي استطعت أن أرى السوق المسقوفة ، مزينة ومضيئة تعج بالحركة والاصوات .

وكان صوت المؤذن يتدفق خلال مربعاتها الصغيرة مع دفء منعش ، وقهقهات اخوتي الذين لم يكونوا قد قتلوا بعد تملأ المكان لم يبق منهم إلا سليم ، ولم يعد يضحك !)

صاحبة الدار تقرع الباب . تدخل . وجهها أنف كبير أحمر ، وعينان بلا أهداب . قلت لها : بعد دقائق أغادر الغرفة وتستطيعين تنظيفها .

العيد ؟

عويل الريح . العاصفة . وصوت الراديو الرتيب الاخبار . قضية هامة . يجب أن أنصت . يقول : فييتنام ... مؤتمر ... حرب ... سلام ... يقول أشياء كثيرة عبثاً تشدني . صوته ازيز آلة رتيبة . فجأة أجدني انصت باهتمام .. المذيع قد عطس !

مسكين ! غداً تطالب الصحف باستئصال رئتيه ، وينكب جيش من العلماء الشقر ، يجرون ابحاثهم لاستئصال رئات المذيعين ؛

هذا بينما رئات الملايين من الغرباء تمتلىء دماً وشوقاً إلى رائحة بلدهم ، دون أن يفعلوا شيئاً من أجلهم ، وهم يدرون أو لا يدرون ، انهم بطريقة ما ساهموا في تمزيقها ...

إذا نجحت في المسابقة ، ورضوا باستخدامي كمذيعة في قسم الاذاعة العربية ، فسوف يكون علي أن أتعلم التنفس الغلصمي ، كالاسماك ، بلا رئة حتى لا أعطس . وسوف أقضي يومي في غرفة الاذاعة الزجاجية المملوءة بالماء ، كسمكة زينة في حوض معروض للبيع . وهذا أفضل مصير يمكن أن أحلم به لو بقيت هنا ...

أجل ! سأصبح واحدة منهم . آلة ، ولكن بلا وطن ...

وكل صباح ، كل صباح ، سأبدأ من هنا ...

وخلف النافذة التي كشفت ستائرها الرمادية ، أرى الفراغ الرمادي تأكله العاصفة ، والسماء رصيف ، وصف طويل من الناس انتظم بانتظار « الباص » كدمى واجهات المحلات العامة ، بلا حركة تذمر أو تأفف أو احتجاج .

من هنا سوف أبدأ إذا بقيت .

إذا بقيت سأصبح مثلهم . هل يمكن هذا ؟

الصق وجهي بزجاج النافذة مذعورة ، فقد رأيتني واقفة في الصف الطويل ، اقضم « سندويشة » أحملها باحدى يدي ، وفي اليد الأخرى أمسك باحدى الصحف اقرأ « صفحة الجرائم » وفي وجهي استسلام الأموات ولامبالاتها كوجه جارنا . الطبيب النازي الذي لا يعرف أحداً من أية مدينة جاء منذ أعوام بعيدة ...

أصرخ : « لا » . اضرب زجاج النافذة بيدي المغلقة على

الرسالة ، فينكسر . ولكن المنظر لا يتبدل .. الفراغ رمادي ، والسماء صيف . و « الباص » قد وصل ، وهم يتدفقون إلى جوفه ، وأنا قد غبت في جوفه ...

دفء الدم الذي يتدفق من يدي لذيذ .

صاحبة الدار تطل برأسها من الباب . تُتمتم وهي تتأمل لوح الزجاج المحطم : عشر شلنات !

كحردون ، تسحب رأسها بسرعة واسمعها تغمغم : اولئك الشرقيون ...

أنا فرحة بالنزف . فرحة بنبض الدم الذي يتفجر . كنت أظنني صرت جافة جافة مقددة حتى لو مددوني تحت أحد قطارات الانفاق لما حدث شيء ، ولظللت ورقة جريدة ، عتيقة جافة ممحوّة السطور !

. . .

أحمل يدي . أمضي بها إلى جارنا الطبيب ، ذي الوجه الميت المحنط بصلابته الصخرية ، والتي لا تعبر عن عمره ، أو أية خلجة في نفسه ، ان كانت له نفس .

أغادر بابنا نحوه ، لا يدهشني أن أرى صاحبة الدار تمسح آثار الدم عن الارض بقرف ، ثم تنظر إلى ساعتها !

. . .

الرسالة لا تزال داخل يدي . ويدي لا تزال تنزف . بها أقرع الباب . تسقط الرسالة إلى الأرض والدم يغطيها . انفجر ضاحكة . اضحك بشراهة . يا له من مشهد « رومانتيكي » تافه ، يصلح لفيلم فاشل ، ولجمهور مراهق : « الرسالة

الدامية » . شيء يثير القرف حقاً ، أهذه نهاية التماسك والنضال؟
الطبيب خلف الباب المفتوح . الوجه الصلد المحنط نفسه .
إذا بقيت هنا لا ريب في أن وجهي سيصبح كوجهه ، وسوف يتهامس الجيران ويحدسون باسم المدينة التي جئت منها ، وقصتي .
ظل جامداً خلف الباب ، وهمهم بطريقة فهمت منها انه يستنكر مجيء كلبه الضخم الرهيب خلفه أيضاً . أعرف انه لايحبني منذ أول لقاء لنا . كلاهما لا يحبني .

(منذ اليوم الأول عرفت لماذا اختار أخي البيت رقم ١٦٣ ، وست اندلين . فقد كان يقع تجاه بار «فرسان دون كيشوت » ، ولا يفصل بين الدار والبار إلا عدة أمتار .

كنت متعبة في ليلتي الأولى . خلفت أخي في البار . بكيت وأنا أسمع الجليد يتكسر تحت أقدامي ، وأنا أقطع أرض الشارع على الدرج الخشبي العتيق كنت أمسح دموعي لما شاهدتهما يهبطان : الكلب وصاحبه .

ولما حاذاني الكلب سمعته يهمهم . والكلب منذ طفولتي يخيفني أكثر من القنبلة الموقوتة وصفير الشرطة . خوف غريزي عفوي لا يفسر . وجدتني أصرخ ذعراً وأقفز بتوتر أعصابي كلها لأتمسك بصاحبه . كم كان حازم يطرب لهذا المشهد ويعلق ساخراً : المناضلة !

لكنه دفعني عنه بخشونة كأنني جرحته شخصياً حينما اعتبرت الكلب حيواناً يخيفني وقال باحتقار : انها لا تعض .. ولا تتحرش بالناس الذين لا تعرفهم !)

كلاهما — الطبيب والكلب — يتأمل الدم المتفجر من يدي ، كأنهما يرقبان نشرة أخبار مكررة في التلفزيون .

يسأل ، وبخشونة : ماذا تريدين ؟

الكلب يهمهم ، وبشراسة ..

تنصهر مدينتي في عيني دموعاً جافة تماماً . ما زال للدم هناك معناه . ربما هو معنى ذو حدين ، لكنه أفضل من هذا العدم .

ينصهر إحساسي بالألم ويفيض ، الدم يفقد معناه لدي أيضاً، كالألم ...

يكرر : ماذا تريدين ؟ أنا في اجازة ...

قلت : جئت استعير ابرة لأنني اريد أن أخيط ثوباً !

. . .

إذا بقيت هنا ، إذا بقيت هنا ، هل يمكن أن أستحيل إلى شيء لا انساني كهذا ؟

إذا كان ذلك ممكناً ، أي عزاء ؟ إذن سوف يتوقف الألم ، ولن أحزن من أجل نفسي ، لأنني سأكون قد تبدلت ، وصرت مثله ..

إذا بقيت هنا ، سأكون مثله ، وسأرضى برجل مثله ، ولن أحلم برجال كحازم ، ما زالت في قلوبهم حرارة الصحراء ونزقها وطهارتها .

(لم أكن أقصد في تلك الليلة أن أهتف له ، فقد كنت أعرف انه في اجتماع عام كبير ، وانه رشح نفسه للقيادة ، وان المعركة محتدمة ضد بعض منافسيه المندسين بين الصفوف ، كعملاء لبعض الجهات التي يهمها تخريب تلك الصفوف ..

وددت أن أخاطب إحدى صديقاتي بالهاتف . ولكن أصابعي

أدارت بصورة عفوية القرص على ارقامه . فوجئت بصوته :
الو ... نعم !
– مَنْ ؟
– حازم !..
– آسفة ..
– أهلاً .. أهلاً بك .. منذ زمن طويل لم أسمع صوتك ..
اني لفي شوق اليك !
قالها بحرارة ، كأنه ليس في أحرج لحظات المعركة ، بصدق وود ، كأن كل ما كان بيننا ، وكل ما لم يكن تدفق في صدره في تلك اللحظة ، رغم وعيه التام بعشرات الاسهم المسمومة ، المختبئة في الظلمة ، والتي تهدف الصدر الكبير نفسه ..
دقيقة ، كانت لها ابعاد اعوام من الغزل المنتظم المخطط له .. أحسسته في تلك اللحظة غالياً حقاً ، لأنه هكذا ، لأننا هكذا ، ما زالت لنا موجاتنا التي يبثها أحدنا ويلتقطها الآخر متجاوباً معها ، ورغم أحلك الانواء !)
إذا بقيت هنا ...
ماذا يتبقى مني ؟ ماذا تبقى حتى الآن ؟

. . .

اربط يدي بنفسي مستعينة بأسناني ...
الجروح تلتئم والجسد يستمر ، والدم النازف هو وحده الذي يضيع .. والجسد عاق !
اربط يدي بشدة . أحنو عليها . يتوقف النزف ، وما نزف

ضاع . لا أدري لماذا أرى شوارع مدينتي ، عروقها التي نزفتنا ذات ليلة !

لا أدري لماذا يغمرني يقين مرير بأن جروحها التأمت ، ودمها النازف تجدد ، وما نزف منها فقط ضاع . والمدينة كالجسد ، عاقة ...

والعيد مستمر ، العيد يبقى ، والأطفال فقط يتبدلون !

والدم النازف ، ما مصيره ؟

إذا بقيت هنا ، إذا بقيت هنا . ماذا سأكون ؟ ماذا سيتبقى مني ؟ ماذا تبقى مني حتى الآن ؟ ما أنا ؟

نحو المرآة أتحرك . خوف غامض ينمو في أحشائي له طعم الخطيئة ، كطفل نسيت اسم أبيه لأنني كنت ثملة . نحو المرآة أظل أتقدم لأعاقب خوفي . أقف أمامها .

لا أرى أحداً في المرآة !

أرى الغرفة داخلها ، وفارغة لا أحد فيها !

أزداد اقتراباً .. ألاصقها . أبحث عن صورتي .. ما أنا الآن ؟

أشهق . أرى وجه الطبيب فيها ، باهت الملامح شاحباً .

أراه خطوطاً اولية للوحة لما يتم رسمها بعد .

أحدق فيه لأتأكد ، فيضمحل وتختفي خطوطه شيئاً فشيئاً حتى لا يبقى من وجهه سوى بقعة ضوء مشوشة تزداد تركيزاً ووضوحاً وتصبح بقعة ضوء فارغة ...

أبتعد عن المرآة .. أتحرك في الغرفة ، من المقعد إلى المكتبة إلى النافذة ذات الستائر المسدلة ...

وفي المرآة ، أرى بقعة ضوء تتحرك في الغرفة ، من المقعد

إلى المكتبة إلى النافذة ذات الستائر المسدلة ...

(طيلة شهر ...

كلّ ليلة ، كنت أستسلم لبرد مقعد ما في الصالة ، أرقب المسرح بذهول لا أجد له تفسيراً ...

كانت المسرحية تدور كلها في جو شبه معتم ، الا من ضوء كشاف قوي ورفيع ، يخترق عتمة المسرح عموداً من نور وينصب على الاشياء والأشخاص بقعة من ضوء تتحرك على المسرح .

بصمت لا مبال عجيب ، تتسلق الوجوه ، الجدران ، يتبدل لونها أحياناً إلى أخضر رمادي حزين ، إلى أصفر أبله ، إلى أحمر دموي ، لكنها بعد ان تنسحب عن الاشياء لا تخلف عليها أثراً أو خدشاً . ولا تمتزج بها ، ولا تتبادل أي شيء معها ...

انها هناك ، وليست هناك ..

لا أدري ماذا فيها كان يشلني ، يأسرني ، يرعبني !)

أية فجيعة ان يكون العيد حقاً هناك ، في مدينتنا !

كأننا لم نتحرك في شوارعها وأزقتها ، وبيوتها مشاعل تستميت لتطهر ، ولو لزم الأمر أن تحرق .

كأننا ما كنا سوى بقع ضوء على مسرحها ، ولم يتغير شيء سوى المسرح .

لن أصدق ! سيقتلني أن أصدق ان الحقيقة الكبرى فوضى من الوحل الذي يغرق العالم !

. . .

العيد . الوحل . اليقين ، النزف ، الجسد يبقى ، كالمدينة .. يخونان النزف .

لا أدري لماذا أحس بحاجة لأن أنظف شيئاً ما ، ان أغسل شيئاً ما ، أي شيء ... الوحل ! الوحل !

ألملم ملء حقيبة من ثيابي . سوف أغسلها للمرة الخامسة خلال هذا الاسبوع ، ودون أن أرتديها مرة واحدة !

. . .

ألقم الآلة قطعة النقود . يفتر ثغرها عن كوب من الصابون .

الآلة الأخرى أحشوها بالثياب : قطعة نقود . زر ، ويتفجر الماء . أسكب الصابون . زر آخر ، وتلوك الثياب .

كمن انتهى من دفن جثة ترهقه ، أتلفت حولي . الغرفة صغيرة ، وعلى جدرانها الثلاثة اصطفت آلات الغسيل . في الوسط مقعد خشبي طويل بلا مساند للانتظار . أتهاوى فوق خشبه الذي يذكرني بالاديرة .

صوت غريب مترنح الكلمات يخاطبني مشيراً إلى رباط يدي الذي صار دامياً : « يبدو أن يدك مصابة بالرشح أو التهاب الجيوب ! »

أنصب على وجهه بقعة من ضوء : وجه متعب لزنجي ، نبيل السواد ، حزين حتى الجريمة . رائحته تدل على انه سطا على مخزن للخمور وشرب كل ما فيه .

— هل تعرفين من أين أنا ؟

— طبعاً أعرف !

فقد سألني وهو يخرج من جيبه موسى صغيرة !

– هل تسخرين مني مثلهم ؟.. ألا تصدقين انني جئت من مكان مـا ، ولم أولد هنا في حجرة الغسيل ، أو حجـرتي الحقيرة ؟

أتماسك . أعرف انه ثمل ومتألم ، وانني لو كنت ثملة ، وحملت موسى ، لمـا قلت إلاّ كما قال . ولو طعنني لما كان يقتلني بالذات ، كان يقتل في شخصي كل هزء أو احتقار سبق ان لقيه من آخرين .

– طبعاً لا أسخر منك ، فأنا أعرف انك جئت من مدينتك!

– هذا رائع !

يستحيل طفلاً يبكي . ينوح كما تنوح الرياح في غـابات بلاده : أنا من افريقيا الشرقية .. هل تعرفين أين تقع افريقيا الشرقية ؟

– طبعاً ... افريقيا الشرقية .. أ .. افريقيا الشرقية ... تقع في شرقي افريقيا !

يقفز على قدميه ، ملوحاً بالموسى استحساناً . زبائن المكان تم تسربهم جميعاً إلى الخارج منذ بدأ حديثه (الودي) .. ينحني أمامي : عظيم ! انني سعيد بلقائك يا سيدتي !

وخلفه ، تنتصب قامة رجل البوليس العملاقة . تجره مـن يده . يستسلم لها بلا أية مقاومة أو تفكير ..

بصعوبة ، أتمالك نفسي ، كي لا ألحق به ، وأسأله بدوري: هل تعرف أين يقع بلدي ؟

. . .

وطنه ، وطني ، أي وطن ، وطن أي انسان !

لماذا ، لماذا يحدث هذا دوماً في كل مكان ؟

لماذا فجأة ، تختلط الاشياء والمفاهيم ، ويبدأ النزف المرير ؟
ماذا حدث هناك ؟

لماذا لم يتصل حازم ليقول — على الأقل — ماذا حدث ؟

هل هو غاضب ؟ هل هناك وشاية ؟ هل صار مثلهم ، يدين بلا محاكمة ، رغم اننا كافحنا ذات يوم كي لا يدان انسان بلا محاكمة ؟

لماذا ؟

أترك ثيابي للآلة . ما حاجة المشردين للاناقة إذا كانوا لا يملكون داراً ؟

إني بحاجة إلى اليقين ...

حازم . أين حازم ؟.. أريد أن أعرف !

أنطلق في الشوارع بقعة ضوء ضالة ، بين آلات مصنع ضخم بارد . حازم ... أين حازم ؟

* * *

لا أدري كم من الوقت انقضى وأنا أسير هكذا ...

ليل لندن الاجرب يجثم على كل شيء ، ويخص صدري بثقله كله ...

كنت أعرف بيت نادر جيداً . ومع ذلك ، تهت طويلاً قبل أن أصل واضغط الجرس .

نادر الآن في بيتنا حيث يحتفلون ، إذا وجدت حازم فسيكون وحيداً .

ثانية أضغط الجرس . عبثاً أرفع جثة يدي عنه ، حتى يفتح الباب .

وحازم !

انه حازم !

أنا مئات من العيون ، أتأمله بها ، أعيه ، أدركه خلال ثوان ، وأتمنى لو أفقأها كلها واحدة بعد الأخرى ، وبيدي . أهذه بقايا العملاق ؟

يتقدمني ، وبلا مبالاة كسول : « أهلاً مادو ! » .

يتثاءب : « تفضلي » .

يسارع إلى كرسي : « لقد أيقظتني .. لماذا لم تضربي موعداً ! » يتثاءب من جديد .

اني عاجزة عن التصديق ...

أصرخ : حازم ! حازم !

وصدى صوتي حاد ملتاع يثير شفقتي ، ثم احتقاري .

أصرخ : حازم !

أتمنى أن أكون في حلم آخر . وان يوقظني صراخي كما حدث صباحاً !

لكنني لم أستيقظ . وحازم لا يزال يتأملني بسخرية ، وابتسامة مشلولة تمد أرجلها العنكبوتية على وجهه وتملأه بالخطوط النفرة المستهترة التعبير .

— أرجو ألا تصرخي هكذا . ستزعجين كلاب الجيران ، ثم انني موجود أمامك !

— أنت حازم ؟ أنت ؟

— أجل ! أنا ، وكما لم أكن أبداً !

– وحازم الذي عرفت !
– كان غراً ، مثلك !
– ثم ؟
– اكتشف الحقيقة الكبرى !
– أين ؟
– في السجن !
– ومدينتنا ، واليقين الذي كنا نعمل من أجله ؟
– مسكينة ، يبدو انك ترددين هذيان مراهقتي كما لو كانت قرآناً !
– ولكن ، حازم .. هل نسيت ؟
– لا ، لن أنسى كم كنت غبياً !
– حازم !
– شكراً للسجن ، ولغدر الاصدقاء !
– حازم !
– سأقول لك باختصار : اسمعي هذا الدرس الجديد ، واحفظيه وحده .
– حازم !
– ليس في الحياة حقيقة تستحق أن يموت الانسان لأجلها ...
– حازم !
– الوطن هراء ... أية دار دافئة مريحة أملكها هي وطني !
– حازم !
– والمبادئ ليحكم الاذكياء باسمها ، ويموت الأغبياء من أجلها !

ـ حازم !

ـ والشعب طفل غبي ، ينـادي أي سارق يختطف أمه : يا عمي !

ـ حازم !

ـ والتضحية مصير الخراف في أعياد الجلادين الجياع ...

ـ حازم ...

ـ والمدينة مومس بلا ذاكرة ولا قلب ، يمتلكها من يحتويها بين ساعديه !

ـ حازم ... و .. و ..

ـ وماذا تودين معرفته أيضاً ؟ اسألي !..

ـ حازم .. وحبنا ؟

سؤالي نكتة ؟ لا أدري لماذا ينفجر ضاحكاً برعونة .

ـ حبنا يا مادو .. انه أحد أغطية الفراش التي نستر بها عن أعيننا حقيقة ما يدور بيننا !

ـ حازم ...

ـ المشاركة اسطورة ... الانانية إله العالم . من أجل انانية مثاليتك ، أما كنت تفضلين ان تسمعي بمقتلي عن أن تريني هكذا ، وتسمعي ما سمعت ؟

ـ حازم !

ـ هل شاركني أحـد تلك الايام الـتي لا شمس فيهـا ولا خبز ؟.. هل سجنت معي ؟.. هل عرفت معنى أن تتبحي الألم ، وتبصقي رئتيك قطعاً متعفنة ؟ هل .. هل ...

لم أعد أفهم ، لا أستطيع . آخر ما رأيته وأنا أنطلق هاربة أصابع يده التي يشير بها اليّ ...

وكانت متشنجة ، وبلا أظافر !

أركض ، أركض ، رغم انني واثقة من عجزه عن اللحاق بي بعكازه ، وفقراته المحطمة !

* * *

شقتنا سحابة من ضجيج ودخان وهذيان ، تتدفق على الدرج الخشبي ، تضرب وجهي وأنا أفتح الباب .

— لماذا تأخرت هكذا يا مادو .

كل ما في الغرفة ينوس مع اهتزازات صوت « سليم » المترنحة . هذا رائع . كلهم ثمل ، ولا حاجة للتمثيل !

— تأخرت لأنني جئت الآن !

— أهلاً ... لم تسمعي المقطع الأخير الذي نظمته الآن من قصيدتي ، « لأننا بلا مدينة » ... قالوا جميعاً انه كان رائعاً ...

وكانوا جميعاً رؤوساً تهتز . ترتمي على الوسائد وأكتاف الحبيبات ، والطعام على المائدة لم يمس ، وكل طبق مأساة ، استحضر صانعها خلال اعداده كل ما لديه من ذكريات ...

نادر ، بصعوبة يتحرك نحو « البيك اب » . يبدو انه يريد أن يقول شيئاً :

— كفى يا سليم ، دعنا نسمع النشيد الوطني !

يهذون ! أجل النشيد الوطني .

كمن يدفن طفلة الوليد ، بالحزن العميق الهادئ نفسه ، أراه يودع الاسطوانة في الآلة ، ويعبث بأزرارها ...

لحظات ، ويبدأ النشيد الذي وقفنا اطفالاً في « الباحات » نسمعه مع مطلع كل أسبوع . لحظات ، ويمد نادر يده بوحشية ومرارة ، يعبث بأحد أزرار الآلة . يغير سرعة دوران الاسطوانة . وهنا يستحيل النشيد مواء وزعيقاً وهذياناً ، جوقة « سيرك » أو تناحر قطط مسعورة ...

ينفجر ضاحكاً صارخاً : اشربوا نخب نشيد وطننا !

النشيد ، مواء وزعيق ، جوقة سيرك ، يرفعون صوت المذياع ، يشربون ضاحكين بمرارة مرعبة السقوط ، وتمزق حقيقي لا تعيه شقراواتهم ، ويخطئنه على انه مرح شرقي خاص !

إلى الشارع أهرب !

أسمع وقع أقدامهم على الدرج ، وأعرف انهم تدفقوا جميعاً خلفي ..

* * *

إلى بار « فرسان دون كيشوت » ..

ندخل سحابة من ضجيج ودخان وهذيان مجروح ، نصطف على طول مائدة ، ونسقط فجأة في خندق من صمت . كل منا يسقط في خندق منفرد ، نتوقف عن الحوار . البعض يخاطبون أنفسهم لولا المائدة الواحدة لما حيّا أحدنا الآخر ساعة دخوله ...

لا أحس بأي شيء ...

منذ غادرت حازم وأنا لا أشعر بشيء أبداً . لا ألم ، لا فرح ، لا دهشة ، لا توق ، حتى ولا برد !

بقعة من ضوء ، انزلق على الأشياء ...

إلى جانبنا على منضدة قريبة يجلس الطبيب . وعلى مقعد ملاصق لمقعده تجلس كلبته . وكلاهما يعب من الشراب . يسكب لنفسه كأساً ولها كأساً ...

ووجهه الحجري الميت أحسه مألوفاً . إذا بقيت هنا ، سيطالعني هذا الوجه في المرآة كل يوم !

هذا رائع إذا كنا حقاً ننسى ، إذا ظل هذا الموت الممتع يغمر أعماقي .

يشربان بشراهة ، كلبته تفوقه ادماناً .

أحسستني كبقية أهل المكان ، لا شيء يثير دهشتي أو تساؤلي ،

حتى ولو نهض وقد تأبطت كلبته ذراعه ، وقدمها لي قائلاً مدموزيل أنيتا ، أقدم لك أخت جارنا سام ..

حتى ولو خلعت الكلبة قفازاً من « الساتان » ، وصافحتني قائلة : « تشرفنا يا مدموزيل » ، أو صفعتني ثائرة : « أرجو أن تخفضي صوت الراديو ليلاً لأنه يزعجني ! » — لما أدهشني شيء ...

أظل بقعة من نور انزلق على الأشياء . كلمة العيد تضحكني . مدينتي أحسها كذكرى حلم عتيق باهت في مخيلة رجل أعمال مشغول لولا ....

لو لم التفت في تلك اللحظة .

لو لم أر الطبيب ، خلف الزجاجات الفارغة المكدسة على طاولته ، يحمل كلبته بين ذراعيه ، يحتضنها . يضمها إلى صدره . يدفن وجهه في رقبتها ، ويبكي ، ويبكي ، يتحدث اليها بلغة

لا أفهمها . ربما هي لغته في مدينته التي جاء منها ، وهي تحنو عليه كما لا تفعل ممرضة في أية مستشفى هنا ، ويبكي بمرارة في صدرها ... وجسده ينتفض وجسدها يتجاوب لأحزانه .. يهدءان . من خلال عينيه المغمضتين في وجهه المستكين اليها ينحدر خيطان من الدموع ... أمسحهما عن وجهي !

وأنا أغادر المكان ، اسمع نادر يصرخ في سليم هاذياً :

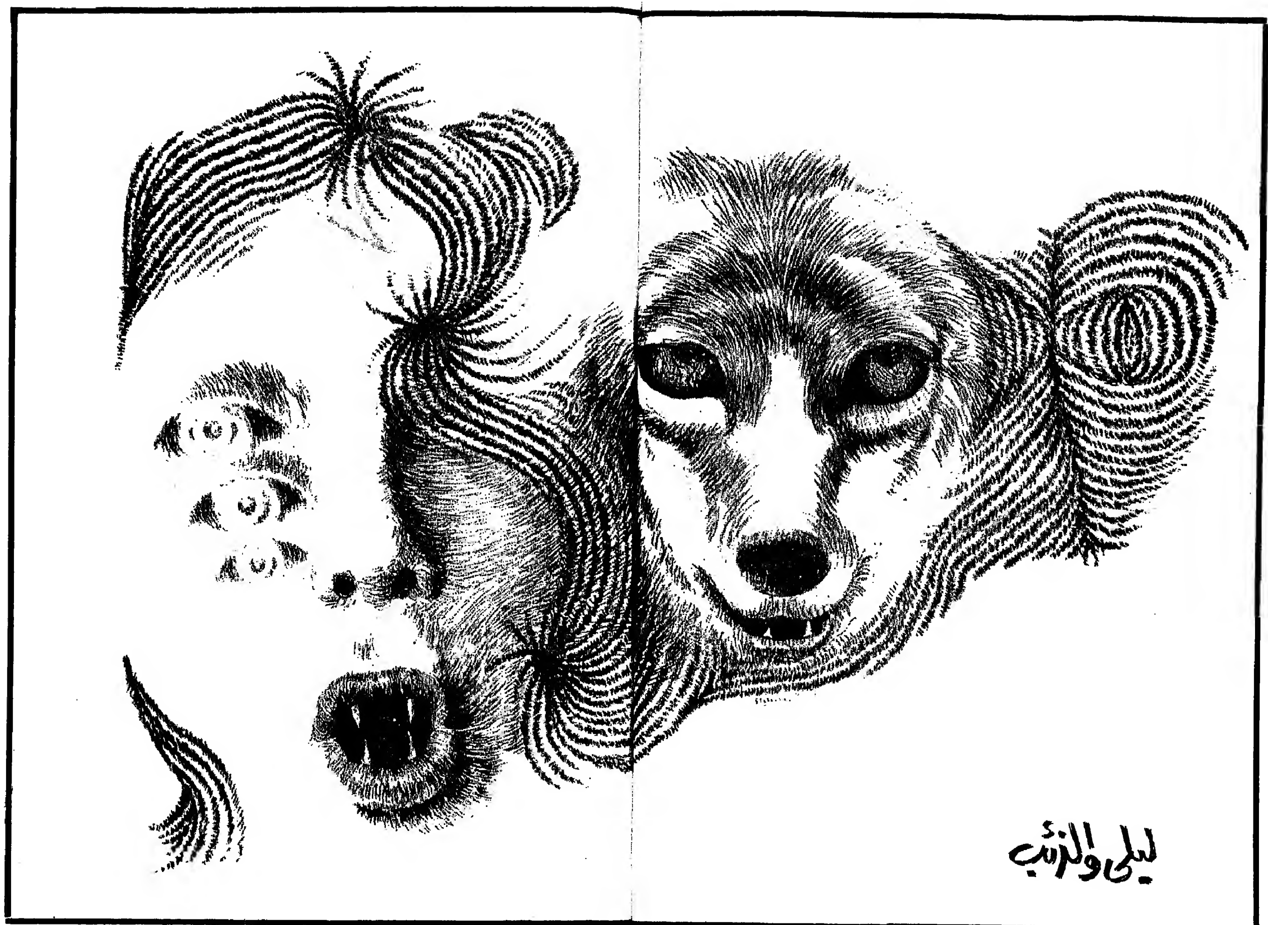
ـ أجل ! قد تشنق البيتلز في هايد بارك ، وقد تطلّق مرغريت زوجها من أجلك ، لكنك لن تكتب « لأننا بلا مدينة » !

يستقبلني برد الشارع . للمرة الأولى أفرح به ...

* * *

صفحات دليل الهاتف تتقلب بسرعة ...
بقعة ضوء ملهوفة أسقط بين صفحاتها ...
أول شركة طيران ادير رقمها .
أول طائرة إلى مدينتي ... لن أبقى هنا ... لن
وليكن ما يكون !

□ تُرجمت هذه القصة إلى الايطالية والبولونية.


ليلى والذئب

خائفة

اني خائفة .

كل ما حولي يرتعد خوفاً .

السطور في مجلد الطب الكبير المفتوح أمامي ترتجف . عبثاً أثبّت نظراتي على الحروف ، التي يختبيء بعضها خلف الآخر .

النور المسلط على مكتبتي يصاب باغماء أصفر ، أصفر ، كأنياب سوف تنبت فجأة ، وتنقض عليّ من مكان ما ، لسبب أجهله كما تجهله هي أيضاً .. اني خـائفـة (يا فراس ... لو تدري) .

خائفة .

حتى الجمجمة الحسناء ، صديقتي الوحيدة فقدت مرحها . بريق السخرية في فجوتي عينيها خبا .. مغارتان للرعب الداكن أراهما أمامي ، وفكها الاسفل يرتجف . ربما في عنقها المقطوع صرخة ميتة .. الصرخة في حنجرتي تنطفئ في كوم رمـاد صدئ .

والريح .

توقفت عن العويل . ربما اختبأت في أحد المخابر . حتّى المطر كفّ عن الهطول .

كل شيء يحبس أنفاسه في ترقب متوتر هلع . خائفـة .. (يا فراس .. تراك كنت تدري ؟) ..

حتى موسيقى (البارتي) في قبو مسكننا الجامعي (البستاني هول) صار فيها ايقاعاً مشحوناً بالانتظار . صار في تسارعها ، وقرع طبولها ، تشنج يد معقوفة الاظافر ، تتحرك في الظلام، وتطبق على عنق ما .

خائفة (يا فراس ، أين يدك ؟) .. خائفة ، رائحة باردة الزرقة تملأ عيني بأبخرتها .. تتدفق من أشباح شجر الصنوبر خلف النافذة ... ربما كانت تتدفّق من حديقة الجامعة الغابة ، ربما كانت أنفاس المخلوقات السجينة في البناء الرابض في العتمة، المقابل لغرفتي في التل .. خائفة (يا فراس ، أين يـدك ؟.. ربما لم تحمني من الخوف ، ربما كانت تشاركني خوفي ، لكنني أحببتها) .

خائفة . قرع الطبول يتسارع . الضحكات التي تعلو من القبو تتحول إلى ما يشبه الصراخ .. إلى ما يشبه النباح .. الزرقة تتكاثف .. أسنان الجمجمة تصطك بتواتر متسارع . رغم عويل الموسيقى عادت الأصوات الرهيبة تتسرب من ذلك البناء الغامض المخيف ، عاد النحيب الممطوط الحزين ... (الليلة ، بعد أن ينمن جميعاً سأظل وحيدة أنصت دون أن أجرؤ على غرس سيخ في أذني ليتوقف كل شيء ، ما دام همسك منذ الليلة لم يعد لي .. ربما يتوقف حينئذ كل شيء آخر إلا تلك الشكوى المريرة الدامية .. ربمـا يسكن كل شيء إلاّ سيل الليـالي

الحزينة البـاردة والتي عـادت تتدفّـق خائفة .. (يا فراس .. أين يـدك ، فالليـل بارد وحـزين ؟ ..) خـائفة ...
(كان الليل حزيناً وبارداً ، ونحن في طريقنا إلى « البستاني هول » . مررنا بمبنى كلية الطب حيث أقضي أكثر سـاعات النهار . كان من الصعب أن أصدق أن خلف تلك الجدران المعتمة مقاعد خشبية بريئة نلتصق بها بهدوء ، ونوافذ تنسكب منها أشعة شمس مضيئة .. في الليل يتغير وجه العالم ، وربمـا يستعيد وجهه الحقيقي . أحسست بأشياء مرعبة تغلي داخل البناء . الهياكل العظمية تتحرك وتتجه نحو النوافذ المغلقة . عبثاً تحـاول الهرب .. ربما يجلس بعضها في الزوايا ، لينتحب بصمـت وبراءة ، من أجل أشياء لا يدري إذا كان قد ارتكبها حقاً .

بحثت عن يدك في الظلمة . كانت كبيرة ودافئة كسقف دار ، كأيدي الآباء جميعاً .. أردت أن أقول شيئاً ، رغـم حفنة الرماد الصدئة في حلقي .. ربما كنت ارتعد كطفلة يتيمة خائفة لأنك سألتني : متى تلقيت آخر رسالة من البيت ؟..

– تلقيت آخر « حوالة » منذ أيام في موعدها المحدد ، فسكرتير أمي ، في منتهى الدقة والحرص في كل شيء !... على أية حال ، لا أتوقع منها رسالة قبل انقضاء فترة الاعياد : الميلاد ، ورأس السنة ..

ورأيت بيتنا الكبير في المدينة المجاورة يغلي ... أمي مشغولة ، مشغولة دائماً ... لا أدري كيف وجدَت الوقت ذات يـوم لولادتي ، وربما أبقتني في جوفها شهراً إضافياً ريثما وجدت لي في زحمة مشاريعها ومواعيدها وقتاً ، ولهذا فأنا مصابة أبـداً

بضيق خائف من الجدران .. ربما أكره المدارس الداخلية لهذا السبب ...

أراها الآن بقامتها الرشيقة ، تقف بين دوامة من الخدم الذين يزينون المكان .. وجهها على صينية لها مفرش من الدانتيل والتنتناه ، وتحتها ثوب من الحرير .. من وقت إلى آخر ترسل من سيجارتها المغزوزة في « بز » من العاج الثمين الحفر ، دخاناً شفافاً ... انها أبداً هكذا ، أنيقة وجميلة ، كما هي في صورها في الصحف ... أنيقة وجميلة كالصقيع النائي .. لا تتعب ، ولا تذبل ، كالزهور الاصطناعية .. كأهدابها الاصطناعية . . كالتماثيل الجميلة القد ، لا تسمن ولا تنحف ولا تتهدل أثداؤها .. وكلما جاءت الخادمة التي أرضعتني لتزورني متحببة ، كنت أتمنى أن أتقيأ نفسي . وبعد أن تذهب ، أتجسس على أمي في غرفة نومها ، لأنني أشك في ان لها جسداً كبقية (المرضعات) وفي انها التوأم الآخر للتمثال المرمري الجميل في الصالة الكبيرة .

– ليلى .. أين أنت ؟

أيقظني صوتك . أعادني من غابة إلى غابة .. وتلفت . كنا ما نزال نهبط الدرج الذي يمتد على طول التلة الكبيرة ، وعلى جانبيه تقع أبنية الجامعة المختلفة ، وفي أسفله (البستاني هول) .. اذكر انني أردت أن أقول شيئاً ، حينما بدأ نحيب ممطوط حزين متقطع ، ينطلق من بين القضبان الحديدية والشبك على نوافذ البناء الذي نمر به .. ثم تلاحق النحيب وتكاثر ، وتعالى ، صار شبيهاً بعواء مئات من الرجال ، المنهكين تعذيباً ، والذين تسيل الدماء من ألسنتهم المقطعة ..

أحسست بك تشد على يدي ، ويدك تكبر وتكبر ، وأنا

صغيرة ووحيدة أتكوم في ركنها ، وأطمر رأسي تحت أحد أظافرها ، هرباً من الأصوات الفظيعة ..

— ليلى .. ما هذه الأصوات ؟.. ما هذا المبنى المواجه لبنائكم الداخلي ؟..

— ان المبنى الداخلي الآخر !..

— وفيه فتيات غريبات ؟.. ما هذا العويل الحيواني ؟

— انهن أكثر وعياً وحساسية لذا فهن عاجزات عن النوم ، ويعبرن بصدق عن مشاعرهن ..

— ليلى ...

قالها عاتباً ،

— لم أكن أمزح ولكن يبدو انك تريد تقريراً باللغة العلمية عن هذا المكان ..

— هذا أقل ما ينتظر من تلميذة طب ..

— هذا هو المخبر .. فيه مجموعة من الأرانب والقطط والفئران والحيوانات الأخرى ...

— لم أسمع في حياتي صوتاً كهذا ..

— في النهار أشارك في تخديرها ، وصنع التجاويف والشقوق في أجسادها المتشنجة . تظل صامتة لا تشكو . وأحياناً ألمح في عيونها الصامتة دهشة خائفة لأنها لا تستطيع أن تفهم ، لماذا يحدث هذا كله .. وفي الليل ، ربما ينحسر التخدير ، ولا تبقى إلا مرارة السجن ، والجراح المسمومة ، والخوف ، الخوف الوحش ..

— هذا فظيع ..

— أبداً ، أحسدها . فهي على الاقل ما تزال قادرة على

الانين والعواء والعويل .. ما زالت تفترض ان هنالك من يمكن أن يسمع ، أو يفهم ، أو يمد يده ..

— هذا فظيع .. تتحدثين عنها كأنك واحدة منها .. كأنك لست من الفريق ، الذي يشارك في زرع الجرائم والعذاب في حناجرها وفقراتها ..

وازدَدْتُ تكوماً في كفك الكبيرة ، ولم أقل لك انك ربما ستفعل بي الشيء نفسه دون أن تدري .. مددت يدي أتحسس حنجرتي وفقراتي . قفز شيء بين الاشجار فكدت أصرخ . اكتشفت انه (مدجج) . انحنيت احمله بينما استسلم مرتعداً لقبلاتي . انه خائف . لم يخطر لي أن أتساءل من قبل أين ينام ؟ قدرتك على أن لا تفقد مرحك أدهشتني دائماً . سألتني مازحاً : من الغريم الجديد ؟..

— انه مدجج ، القط الذي أتولى اطعامه .. انه يعيش في الجامعة مثلنا ، لكنه أكثر حظاً لأنه غير مجبر على النوم في (البستاني هول) .. انه وحيد دائماً . لا ريب في ان أمه سيدة مجتمع خالدة الجمال ..

— مدجج ؟.. هذا اسم غريب .. لماذا اخترته ؟..

— سئمت الحديث بالانكليزية طوال الوقت لأن أكثر الزميلات أجنبيات . ان لفظ اسمه يتطلب منهن جهداً لم نبذله في تعلم لغتهن بأكملها .. اسمه انتقامي منهن . أمام الباب رميت (بمدجج) إلى عتمة الغابة وأنا أحسده .

— سأتصل بك هاتفياً بعد نصف ساعة لأقول لك مرحباً ... مرحباً ..

مرحباً ... أهلاً ... فراس ... فراس ... أي شيء ...

كان المهم أن أسمع صوتك في الليل بعد أن تغلق الابواب ، كان جرعتي المخدرة ، كان وحده يحميني ، يعيدني فتاة سوية قادرة على النوم كأية فتاة في شارعنا الحزين الذي يمتد على جانبيه شريط من الغرف ، ولكل باب رقم ، واسمي في بيتي هذا : الرقم ٢٠٢ !.. كان وحده ، الصوت العميق ، الدافيء ، كلبن أم امتُص للتو ، المفعم بالحنان ، كان وحده ، يطغى على أصوات جيراننا في البناء الداخلي الآخر المرعب ، وكـان وحده يحولني من الرقم ٢٠٢ في شارع اللواتي أمهاتهن سيدات مجتمع ، إلى ليلى التي تفرد لها ضفيرتها قبل أن تنام وتمشط شعرها بأصابعك وترسل الغطاء عليها ثم تقبلها في جبينها وتغلق الباب بهدوء ...

— فراس .. تصبح على خير ..

— ليلى .. حبيبتي .. اذهبي ونامي ...

وعلى رؤوس أصابعي العارية أتسلل على الدرج عائدة إلى غرفتي . ولا أشعر بأي حقد حينما أصل إلى الممشى ، شـارع الغرف المتشابهة ، وأرى أضواءها كلها مطفأة ، وأنفاس النوم الكسولة ، تنسكب من شقوق الأبواب بتكاسل أبخرة ثقيلة . وأنام ..

ولا أحلم بذلك الحلم الرهيب الذي لاحقني طيلة حيـاتي .. حلم الخوف .. الخوف .. خوف اليقظـة .. الخوف .. إنني خائفة ..)

خائفة .. الحفارة تعمل في صدري .. النحيب يتعالى .. الجمجمة لم تعد صديقة ... الرعب يتدفق من عينيها ... في القبو وليمـة وحشية للصراخ ... يجب أن أمسك يـداً مـا

(يا فراس .. أين يدك ؟.. بحجر كبير أهشمها وأبكي لأغسل دمها) ..

التفت إلى شريكتي الباكستانية في الغرفة انها ليست موجودة إلا حينما تزعجني .. انها نائمة .. شيء لا يصدق أنها تستطيع ان تنام هكذا ... ان تفتح فمها بهذه البلاهة ، أن يعلو صدرها ويهبط بهذا الانتظام ... شيء لا يصدق انها تسجن نفسها هكذا ، تسجن نفسها وتسخر من (البارتي) والشبان ، وتصلي من أجلي لأنها تجدني طفلة ضالة ، ثم تأوي إلى فراشها تقرأ أحد الكتب الجنسية البذيئة ، التي جلدتها بغلاف كتب عليه « الاخلاق في الحياة الدنيا والآخرة » ... انها نائمة ، والعالم كله ينزف رعباً ... ربما كانت ميتة .. ربما كانت ميتة ... ربما ماتت خوفاً دون أن أدري ... ربما ماتت لذة وهي تقرأ وتقرأ في كتبها .. ربما ماتت تُقى أثناء صلاتها قبل النوم ..

أريد أن أنهض وأهزها ، لا أستطيع أن أتحرك . أنا يابسة ، يابسة . زهرة جففت بين دفتي مجلد الطب الكبير أمامي .. أنا ضائعة .. أريد أن أصرخ (زبيدة .. هل أنتِ ميتة) لا أستطيع لا أستطيع شيئاً .. كما في الكوابيس الفظيعة .. الحفارة في صدري .. يد مجهولة معقوفة الأظافر تدفع بها .. الدم والحصى يتناثر على وجهي .. لولا الرماد في حلقي لصرخت .. (يا فراس .. هل كنت تفهم معنى ان نفترق) خائفة .. ببطء .. ببطء مخيف يرتجف مقبض الباب . يتحرك .. تعلو الصرخات .. يفتح الباب .. تتدفق موسيقى الوليمة في القبو ... مَنْ من من يمكن أن يأتي الآن ؟.. مَنْ صاحب اليد ذات الأظافر المعقوفة؟

تدخل فتاة أظافرها ليست معقوفة .

— ليلى .. كفاك دراسة .. كلهم يسأل عنك ، تعالي قليلاً ، فالحفلة قد شارفت على النهاية على أية حال ...

كان من الصعب أن أجيبها بالانكليزية ، وحتى بالعربية . أحسست باللغة شيء مضحك وسخيف ، والحديث الوحيد الحقيقي هو انتحاب سجناء البناء الداخلي الاخر .. حديث من طرف واحد . الحوار اكذوبة .. الالتصاق وحده هو الحوار الحقيقي .. الانسكاب .. ان انسكب من أمي .. أن ينسكب لبنها في جوفي .. أن ينسكب فراس في ارتشافي ..

ولكني خائفة .. فلأهبط قليلاً .

الطرب ما يزال يهزها .. تقف وتحرك قدميها مع الالحان المتوترة من القبو .

بينما أغلق ازرار ثوب بسيط ينفد صبرها .. وربما ما يزال صديقها واقفاً في الحلبة وفاتحاً ذراعيه بانتظارها كما تركته . قالت : « الحقي بي بسرعة » .. تخرج .. ألحق بها بعد دقائق .

أهبط الدرج إلى القبو . أمرّ بالهاتف . أمسك بسماعته وأدير أرقامك كالمخدرة .. وأسمع صوتك مشحوناً بالنعاس والتأفف .. آلو .

(يا فراس كيف تستطيع أن تنام الليلة .. الليلة وقد عدت ذئباً وحيداً ، وخلفتني ليلى بلا جزار) ..

بكلتا يدي أقبض على السماعة ، وبثقلي كله أشدها واقطع الشريط الاسود .. الجسر الاكذوبة للالتصاق الاكذوبة .. غداً سأكون المتهمة الوحيدة .. فأنا كما يعرف الجميع شريرة ..

الشريرة الوحيدة .. كيف يمكن لامرأة رقيقة وراقية أن تنجب فتاة شرسة هكذا ..

على باب القبو أقف .. عبثاً أنتمي إلى عالمهم .. الاضواء لففنها بالورق الملون وامتزج الأحمر القاني بالأزرق الخافت بأخضر الغابات المسود .. وعلى الجدران الاوراق المقصوصة .. وعلى الرؤوس الطراطير ، والفتات الملونة لم تُنفض كلها عن الوجوه ، فالتصقت بالعرق ، والضجيج ، وزملاء الدراسة يلعبون أدوارهم الحقيقية ، والضحك ، وقرع الطبول ، والرقص والشعر المتطاير ، والريح في الخارج خائفة ، واليد المجهولة ذات الأظافر المعقوفة تتخبط في الفضاء بحثاً عن صدر تسزج بالحفارة فيه ، والحفارة في صدري ، والمخلوقات السجينة في البناء الآخر رغم كل شيء أسمعها تلهث في أذني (يا فراس ... كان من الصعب أن تفهم ، وإلا لما استطعت أن تنام) ، والثياب تتطاير ، وأنا أزداد التصاقاً بالباب ، بحاجة إلى أن التصق بشيء ما .. الوجوه تدور أمامي ، تدور ، تدور ، تقفز ، تصرخ ، تهذي ، الموسيقى تعول ، الطبل الطبل ، فجأة أرى الاقدام عارية ، الثياب مخيفة الالوان ، الطبل وحده ضرباته وحشية متلاحقة ، القبو المزين غابة في الليل ، والنار ، ووليمة وعلى الوجوه أصباغ مخيفة ، والعويل ، والبناءان صارا بناء واحداً ، وجوقة النحيب هناك ، هنا ، والسماء لوحة فولاذية ليس عليها حرف واحد ، ثم كرة صغيرة ثم شحنات مجهولة تتدفق منها ، ويسري وعي مبهم بخطر فظيع ، الكل يتلفت حوله ، والخوف ، والرقص الوحشي ، وعلينا أن نرفع ضحية ما بطريقة ما لنهرب من مصير ندفع اليه ، لنهرب من تعذيب أحدنا

للآخر . فقدنا القدرة على المراوغة ، وفي الاعلى اليد الكبيرة ذات الأظافر المعقوفة تهيمن ، نطيع ونتوقف عن انتحـال الاسباب وتسخير المنطق ، والقرع الفظيع ، والرعـب ، والهستيريا من الضربات العارية على الأرض ، أين دبابيسي . ليخرج كل دماه .. أين الدبابيس خائفة .. خائفة ..

وأركض .. أركض .. أنا في الغابة خائفة ، أنا في الغابة .. يجب أن أهرب .. أن أهرب .. ان أهرب ، يجب أن يتوقف كل شيء بطريقة ما ، أهرب مما لا أدريه إلى ما لا يوجد .. ماذا ؟ ماذا ؟ كيف ؟ لا !..

ربما بعنف أغلقت باب غرفتي ورائي . زبيدة شريكـتي (بالقرعة) في الغرفة تقفز بهلع من نومها .. النور البـاهت على مكتبتي ما يزال مضاء .. تصرخ رعباً وهي تنظر في وجهي ، ثم في مشهد الدمى المشنوقـة المتدلية من الجدار خلف المكتبة ..

— هل عدت إلى هذه الاعمال الفظيعة .. اقدم شكوى غداً ضدك وسأطلب نقلي من هذا الجحيم الوثني .. لا أستطيع أن أعيش في غرفة واحدة مع شريرة . انظري إلى وجهك في المرآة ...

ونظرت إلى المرآة ولم أرَ فيها شيئاً !.. على الجدار يتأرجح شريط الدمى المشنوقة في الريح .. دمية لامرأة جميلة وجهها على صينية من الدانتيلا والتنتناه وثوبها الطويل من الحرير ، وفي فمها (بز) عاجي صغير ، وعود يشبه سيجارة .. وعلى صدرها علقتُ ورقة بيضاء ، صغيرة ، برقية ، بعشرات الدبابيس غرزتها وثبتها .. برقية تلقيتها بعد الاعياد ..

... انفجرت ضاحكة أمام الموظف المشدوه .. برقية ؟.. برقية

من والدتي مع الحوالة النقدية ؟.. قلت ربما كانت برقية تهنئة بعيد ميلادي . بعيد خلاص رشاقتها منذ عشرين عاماً من التشويه الذي أحدثته لأشهر ...

وقرأت : « تم الطلاق بيني وبين والدك ... اختاري أحدنا » ..

وانفجرت أضحك .. نكتة حلوة سأرويها لصديقتي الجمجمة ونحن نغرس الدبابيس ونضحك ..

أعطيت البرقية للموظف المشدوه وطلبت منه قراءتها .. كنت بحاجة لأن يشاركني إنسان ما ضحكي . يشاركني .. يبدو انه لم يفهم النكتة .. سألني بلطف مشفق إذا كنت بخير ..

في طريقي إلى الجانب الآخر من التل لم أتمالك نفسي من الضحك .. رغم نظرات زبائن (فيصل) و(انكل سام) المدهوشة .. أن أختار أحدهما !!.. كيف أختار إذا كنت لا أعرف عنهما إلا أخبارهما في الصحف ؟.. ربما كانت الآن تجري حصر الامتعة استعداداً ليتقاسماها فيما بينهما ، وحصر الفواتير لتقسيم الثروة ، وتذكّراني لما وجدا فواتير المرضعة والمدارس الداخلية ..

تطلب مني أن أختار أحدهما !..

خمسة عشر عاماً وأنا وحيدة ، أتسول يداً كبيرة دافئة كسقف دار . خمسة عشر عاماً من جحيم إلى جحيم ، وأنا دوماً النعجة السوداء الشاردة .. خمسة عشر عاماً وليلى في الغابة بحثاً عن الذئب كي يؤنس وحدتها .. خمسة عشر عاماً وأنا أينما حللت الشريرة الشرسة .

ان أختار أحدهما !.. كأنْ كان لي أحدهما كي أختار .. وطويت البرقية .. وفتحت مفكرتي وأنا أغادر باب الجامعة وأسير في الجانب الثاني من التل ..

واتجهت إلى مخزن « معتوق » . اخترته لا لمنظر الحلويات في واجهته ولكن لأن اسمه « معتوق » .. اسم عربي كاسم « مدجج » فقد سئمت الحديث الدائم باللغة الأخرى .. خلف الموظف كان وجهي في مرآة .

– أريد كعكة لعيد ميلاد الجمجمة .

– ماذا ؟..

– قلت لك لعيد ميلادي .. أريدها كهذه الكعكة ..

– حاضر . عنوان البيت ؟

البيت ! كلمة مرعبة ...

– بيتي شارع طويل على جانبيه شريط من الغرف المتشابهة و ....

– عفواً .. لم أفهم اسم الشارع ..

– المصيطبة .. رقم ...

اعطيته عنوان دارك يا فراس ..

– والاسم ؟

– رقم ٢٠٢ ..

– عفواً لمقاطعتك ، ولكن لا حاجة لرقم الهاتف . الاسم فقط ..

– بالضبط ... ٢٠٢

– لم أسمع ...

– فراس !.. المهندس فراس هاشم ..

وخرجت هاربة . كان من الصعب أن أفسر له ان بنـات سيدات المجتمع صاحبات الجمال الخالد (بلا اسماء وبلا عناوين) ...

زبيدة ما تزال تصرخ . في عينيها خوف تافه لئيم . الخوف ، لو تعرف ما الخوف (يا فراس .. أحقاً انك نائم ؟.. هــل استطعت أن تنام مثلها ؟) ..

– انزلي هذه الدمى .. الغرفة مليئة بالأرواح الشريرة .

تتثاءب من جديد .

– لم أنم ثانية واحدة منذ جئت إلى هذه الغرفة المشؤومة .

تمد يدها إلى المنضدة ..

– سأقرأ بعض الادعية لأنام .

تلتقط كتابها الجنسي ذا الغلاف « أعمدة الحكمة السبعة » وتسوي غطاء فراشها وسجادة الصلاة التي تحب أن تمدها فوق الأغطية !.. تشعل النور الصغير فوق رأسها .. فك الجمجمة يتوقف لحظة عن الارتعاد .. تصوب إلى زبيدة من مغارتيّ عينيها أشعة سوداء قاسية .. ثم يعاود وجهها ذلك التعبير الساخر الحلو ..

بحنان أتحسس عظامها ..

– يا جمجمتي الحسناء .. لو كنت دافئة فقط ..

تصرخ زبيدة : كفّي عن مخاطبة الجمجمة ، هذه وسيلة ايضاح لدراستك وليست صديقة ثالثة في الغرفة .. ولملمي هذه الدمى ...

الدمية الثـانية .. لرجل بلا وجه ، أشيب الشعر منتفـخ الجيب .. كانت جيوب أبي منتفخة دائمـاً ، ولم يكن

فيها قط حلوى لي .. في درجي الخـاص أدفنهما مـن جديد ..

وفي الدمية الثالثة ، دميتك ، أدفن دبوساً جديداً ..
أعض على شفتي لأمص من شفتي دمك ..
قد أبكي إذا آلمتك ، فاستريح ..
افترقنا ..

لم يحدث شيء .. أبداً كنت خائفة ، أبداً كانت الغـابة موحشة والليل طويلاً ، وأنا سجينة انتمي إلى قافلة الاحتجاج الدامي في البناء الداخلي الآخر .. (يا فراس .. لا ريب في انك لا تدري .. لا ريب في ذلك فقد كنت أبداً كبيراً وكريماً .. وفي لحظات الغروب كنت أحب أن أراك ، لأن ظلك على الرمل كان طويلاً طويلاً أركض وأركض لادرك الرأس فيـه .. وتغيب الشمس ويختفي قبل أن أصل إلى نهـايته العملاقة .. انك متعب ، ولا تدري ، ولهذا أنت نائم .. آسـفة لأنني أيقظتك) ..

تعود الحفارة إلى صدري .. لا .. لست آسفة لست بآسفة كان عليك أن تدري .. لقد سمعتَ الاصوات ذات ليلة .. خذ ، هذا دبوس آخر في دميتك ...

ربما أبكي إذا استطعت أن اؤلمك ، فأستريح !..

(.. تصرخ الراهبة في وجهي : ابكي .. كوني طفلة طيبة تصلّي وتكتب الرسائل لأمها .. ابكي فالفتيات الشريرات فقط لا يبكين ولا يستغفرن ..

وكنت أبكي بمرارة بلا صوت ولا دموع .. كان من الصعب أن أتعرى أمامها .. كنت أحس انها بلا قلب ، وانني بحاجة

للبكاء لأني خائفة ، لا لأنني طامعة في قطعة من الحلوى كبقية الفتيات .

ـ سأعاقبك ولن أسامحك حتّى تبكين .. اديري وجهك للحائط وقفي على ساق واحدة .

وتحجرت !.. كسرة خبز جافة للعشاء وكأس ماء . لم آكل قطعة الخبز لكنني وأنا أشرب الماء تذكرت حلماً فظيعاً رأيته ولا أدري كيف أطبقت بأسناني على الكأس ..

وعرفت طعم الزجاج المسحوق بالاسنان ، الممزوج بدم مالح وحار ..)

كفّت الموسيقى . ربما تعبوا . اسمع وقع خطى كثيرة على الدرج . مارسنَ تحذيرهنّ وودعن الفرسان . وعدن إلى جحورهن .. وسوف ينمن بسلام كما في كل ليلة ، ولن يسمعن الاصوات المخيفة .. زبيدة تطفئ النور الصغير فوق رأسها . ترمي بالكتاب من يدها لتنام من جديد وهي تتمتم : لم أعرف طعم النوم منذ جئت إلى هذه الغرفة المشؤومة ..

أنا من جديد مسمرة خلف منضدتي .

خائفة ، رغم أصوات الأبواب التي تفتح وتغلق وانسكاب المياه وصوت بقايا النشوة الضاحكة .. الضحك . يضحكن رغم انتحاب مخلوقات البناء الآخر المقابل ، ويحلمن .. رغم كابوس ليلى في الغرفة المجاورة .. الجوع وحده هو الذي يجمعنا إلى مائدة واحدة . . لا جسر لا خيط لا حوار .. (يا فراس .. لا جسر لا خيط لا حوار ؟.. ويدك ؟ سقف سحابة ؟ يا فراس .. لا يهمني كيف ولماذا ، كل ما أعرفه هو انني لن

أتكوم في صدرك يا ذئبي الحنون ، وانني أحببتك حقاً ذات يوم .. ولكنك لن تدري ولم تدر رغم كل ما قلته وما كنت أود أن أقوله .. فالحوار ميت ما دامت الكلمات في عالمك تعني شيئاً آخر عما تعنيه في عالمي .. وكل ما قيل كان للرياح لأن خط الهاتف كان مقطوعاً دائماً .. اليد المجهولة ذات الاظافر المعقوفة قطعته .. كان مقطوعاً منذ البداية . لم أقطعه الليلة أنا .. غداً كيف أفسر لهم انني لست شريرة وان شريط الهاتف كان مقطوعاً دائماً دائماً ...

ومع ذلك ، كان يكفي أن أحس انك في الطرف الآخر من الجهاز الاكذوبة ، وانك على الاقل تحاول أن تكون معي ، وأنفاسك اللاهثة جسر نور مرتجف) ..

بدأ ضجيجهن يخفت . زبيدة غارقة في النوم من جديد . الجمجمة صامتة وحزينة . الاصوات هدأت برهة لكنني أعرف انها ستعود . عدت وحدي معك .. عن الجدار أتناول دميتك . أنتزع الدبابيس منها واحداً بعد الآخر .. كم أحببتك . . . (يا فراس .. أعرف انك أحببتني كما لم تحب امرأة في حياتك .. أعرف انك أيضاً وحيد وكئيب ، وان شفتيك ما تزالان تجوسان عنقي بحنانهما العجيب ، لكنهما تقولان كما أقول : افترقنا .. لم يحدث شيء) ..

بلى .. حدث شيء فظيع ، وهو ان ما حدث لن يتكرر ربما طيلة العمر .. واننا افترقنا بلا مبرر ، ولم يكن هنالك أي مهرب من ذلك .. والحفارة لم تحتز صدري بنفسها ، هنالك طرف ثالث في كل ما كان .. نتصرف كأننا وحدنا كل شيء ، وننسى اليد المجهولة ذات الأظافر المعقوفة ، ربما لأننا

لا ندري عنها شيئاً ، لكننا نعرف انهـا هناك ما دام ذلك كله يحدث ، ولا يتبقى لنا إلا الخوف ، وعناقنا احتماء خسـائف بخائف .. (يا فراس .. أين أنت أخفيك في صدري من خوفي) . لن أقبل دميتك ، أخشى ان لا أبكي فانفجر .. يجب أن أبكي مرة ما ..

(– ابك . قولي أي شيء ..

ظللت صامتة . كنت أعرف ان ذلك سوف يحدث . كنت أعرف ان لا مفر من أن يحدث . ظللت جامدة . تمنيت شيئاً واحداً : أن أروي لك ذلك الحلم الذي يلازمني منذ طفولتي ، منذ عرفت طعم الزجاج المسحوق بالدم .

أنا طفلة أركض باكية في غابة مخيفة الأصوات . جائعة . جائعة لأنني خائفة . لأنني هربت من كوخ جدتي التي تتمدد دائماً في فراش لا تنهض منه ولا يبدو منها سوى رأسها عائماً فوق الدانتيل والتنتناه ، ويدها التي تمسك (بز) سيجارة من العاج المنقوش وتدخن ، أو تمدها للرجال الداخلين والخارجين باستمرار فينحنون لتقبيلها ...

فقد حدث أن أحسست بالجوع لأنني أحسست بالخوف .. ولما دببت على فراشها بحثاً عن صدرها لأرضع بنفسي بعد ان شاهدت إحدى الخادمات ترضع طفلها دفعتني بقسوة لأنها مشغولة ولا وقت لديها .

هجمت عليها بأنيابي الصغيرة ، ومزقت ثوبها لأنني جائعة، لأنني خائفة ، لأنني سأموت رعباً إذا لم أرضع .. ولما طردتني من الغرفة هربت إلى الغـابة بحثاً عن الذئب لأرضع .. كنت أعرف أنه هناك ، ولم أكن خائفة منه كبقية الأطفال .. كنت

أعرف انه يحبهم بطريقته الخاصة ، وكنت أعرف انـه ليس شريراً ، وانه ربمـا سيروي لي قصته .. وينتهي الحلم دائماً وأنا في الغابة أبحث بلهفة عن الذئب .. تمنيت أن أقول انني لست آسفة على شيء ولست نادمة وانني أفيض امتناناً ومحبة .. وانني إذا رويت قصة ليلى والذئب لأولادي فسأخبرهم بأنـه كان شاباً رقيقاً شفاف العينين ، في احتضانه الشرس لليلى تخدير يشبه الحنان ، يشبه اغتصاب موت عنيف كاليقظة وكالفرح .. وانه لم يعذب ليلى ، وانه أراد أن يقبّلها ، لكن أسنانه ركبت بطريقة جعلت من قبلته عضة مميتة .. وانه حاول في البداية أن ينسيها خوفها بعناقه الدافيء المنعش ، فلما ابتسمت بنشوة طفل فرغ للتو من امتصاص ثدي أمّه ، تمنّى أن يمنحها كل مـا يملك ..

لما سرى سمه في جسدها لم يستطع أن يصدق .. كان يظن انه يمنحها عسلاً ورحيقاً .. مَنْ شوّهه هكـذا دون أن يدري ؟.. فصار حينما يظن انه يبتسم ، يستحيل مرعباً مخيفاً كأصوات الغـابة ؟؟.. كـأنّه صورة حسيّة للأصـوات البائسة ..

وحينما قتل الخوف ليلى لم يدرك أحد أن ليلى كانت هـي الذئب لأنها أتعسته بحبه لها ، وجعلته يدرك كم هو عاجـز وضعيف ووحيد .

ومن يومها انطلق الذئب في الغابة بحثاً عن يد مجهولة لهـا أظافر معقوفة ..

أردت أن أقول لك هـذا كله .. لتعرف لمـاذا لم أبك ولم أناقش ، ولماذا كنت أعرف أن شيئاً ما سوف يحدث ..

عدت تهمس بقسوة تقسرها عن الانسكاب في ارتجاف صوتك الحزين : ليلى .. قولي شيئاً .. ما رأيك ؟.. وكان يقف خلفك أحد عمالك وبيده الحفارة الكهربائية . الصق نابها الذي يدور بوحشية على صدر الصخر وبدأ يأكلها والغبار الصخري يتطاير .. كنت تقول : ليلى .. يجب أن تفهمي انني .. وضاع صوتك في ضجيج ناب الحفارة الذي يدور بوحشية وينغرس شيئاً فشيئاً في الصخر ...

ربما لم يضع تماماً فقد ظللت تحرك شفتيك وتشير بيديك ، لكنني لم أعد أسمع شيئاً .. لمحت لسانك يتحرك في فمك ، ثم لم أعد أرى سوى لسانك ، ثم أحسستني عارية ممددة على الصخر في الغابة ولسانك حفارة تعمل في صدري .. فولاذ لا حدّ لوحشية دورانه وتمزيقه .. الحفارة في صدري . عاجزة عن الفهم . عن المناقشة .. الاشياء أقسى من أن تكون موضوع بحث منطقي ... أردت أن أهرب . لم أستطع . على وجهي يتطاير الحصى من صدري .. كفى .. صمتت الحفارة .. اقترب العامل منك ليسألك عن شيء ما .. سمعته يُخاطبك : سيد فراس . فذكرت اسمك .. فراس . المهندس فراس .. ذئبي الغالي .. التفت اليه تناقشه باهتمام كبير . لم أسمع صوتك. لم أعد أسمع شيئاً .. أغمي على الاصوات .. ربما سرت طويلاً في شوارع المدينة التي تصادف انني أعيش فيها ... لم أكن حزينة ولا فرحة ولا متعبة ولا مدهوشة .

افترقنا ..

لم يحدث شيء .

كنت خائفة فقط كما كنت أبداً .. الخوف القـديم التوأم نفسه ...

توقفت عند أول بائع عصير فقد كان فمي مراً كما لم يكن أبداً .

كان كل مـا أعرفـه هو انني رضعت في الغابـة نباتاً مر السموم .

ولا أذكر كيف ومتى .

كنت أتأمّل وجـه بائـع العصير وأحـاول أن أذكر أين ومتى رأيته ... كان مألوفـاً لديّ إلى حدٍّ لا يُصدّق .. ومحبباً ..

مرة قلت لي : لا أطمئن اليك يا ليـلى .. تتصرفـين كالاطفال ... ردود فعلك كالاطفال .. تحبين بسرعة وتنسين بسرعة ، ولا تعرفين في بعض اللحظات معنى ما تحسين به ..

وظللت أتأمل وجه بائع العصير وشاربيه .. أين ؟ أين ؟.. ثم تذكرت انه يشبه وجه قطي مدجج . لو الصق وجهه على جسد رجل لكانت الحصيلة هكذا .. لذا تناولت كأس العصير منه وقلت : شكراً يا مدجج .. ضحك بدهشة القطط واهتز شارباه . وهنا كدت أتأكد من انه مدجج نفسه وأردت أن أسأله إن كان سيخلع هذا الجسد المضحك ويعود إلى الحديقـة مساء وقت العشاء ، وإذا كان يريد مني اليوم أن أسرق له فخذ دجاج من (الكافيتيريا) أم ان لديه فئراناً كافية .. لكن رجلاً مرّ بنا في تلك اللحظة ، وقـد حمل بين يديه بعنـاية لفافة صغيرة .. تمتم بائع العصير الذي لم يعد يشبه مدجج : إنا لله وإنا اليه راجعون .. جفّ حليب زوجته من التعب والفقر ،

ومات طفلهما جوعاً !..

وهنا فقط لاحظت ان ثيابه رثة وقذرة ، وانه يحمل جثة طفل ملفوف بشرشف ممزق .. وفي رأسه المنكّس انكسار لا حدّ له .. ذلّ غريب في خطواته المتثاقلة ، ذلّ إنسان مقسور على اداء دور لا يدري كيف ولماذا زج بـه .. شيء ما في المشهد أعادني أمامك .. عدت أسمع صوتك : إبكي ... ناقشي ... قولي شيئاً ... عدت أسمع حديثك الضائع في ازيز الحفارة . عادت الحفارة . لسانك . الحفارة على صدري من جديد . كلماتك لا أسمعها لكنني أشم الكارثة بالحاسة نفسها التي يدرك بها الاطفال ان عزيزاً ما في الدار مات دون أن يفهموا معنى ما يدور . الحفارة بوحشية تدور ، بوحشية تنغرس في صدري . أختنق . أعجز عن الصراخ ، تزداد اكلاً لأعصابي . هـذه المرة أحسها تقسر على الانغراس في صدري . اليد المجهولة ذات الاظافر تدفع بها . تقسرها .. هذه المرة أحس بانكسار لا حد له في رأسها الفولاذي .. بذل عجيب في قسوتها ، ذل آلة مجبرة على اداء دور لا تدري كيف ولماذا زج بها فيه .. أحسست برغبة في أن أتحدى اليد المجهولة .. في أن أشدّ الحفارة إلى صدري ، ازداد التصاقاً بها .. أحسست انني احبك .. انك أيضاً خائف مثلي ، ربما كنت أكثر خوفاً ، لكنك كالكبار جميعاً ، وكالذئاب ، ترفض أن تعترف بذلك كله . أحسست ان وجهي بدأ يتجعد ، وظهري ينحني ، وأسناني تتساقط في فمي ، وأنفاسي تضيق ، والرماد الصدئ في حلقي يتكاثر ، وانني عجوز عجوز ، وسيرتاع بائع العصير لو نظر إليّ ، فرميت بالكأس أمامه ،

وتلمظت بطعم الزجاج المسحوق في فمي المهترىء ، وغمرني حزن كبير كبير .. حزن أشدّ قسوة من الخوف ومن الغربة ..

حزنت حزناً طفلاً عجوزاً ليس فيه من رياء حزن الكبار والذئاب ومكابرتهم ..

دون أن أدري لماذا وكيف سرت خلف الرجل في جنازة الطفل الذي لم يرضع ..

سرت طويلاً ، ويداي مشدودتان أمامي ، مثقلتان بشبح جثة لا أدري كيف أدفنها ..

نظرات المارة لا تهمني .. لو سمعوا نحيب سجناء المبنى الآخر لساروا جميعاً خلفي .. سرت طويلاً .. لا أدري كيف أدفنها) .

والآن .. لا أدري كيف أبكيها .. لا شيء يبكيها . صمت عجيب . كل شيء صامت وجامد . الخوف متصلب خوفاً .. زبيدة نائمة .. اني خائفة . ربما كانت ميتة .

الجمجمة عادت مجموعة جامدة من العظام المتقززة ، لأن الديدان ساحت عليها زمناً طويلاً قبل أن تدرك انها فرغت تماماً ولم يبق فيها ما يؤكل ..

عبثاً أحاول أن أقرأ في كتابي المفتوح . ماتت الحروف واستحالت جثثاً ولم تعد تعبر عن أي شيء ..

الاشجار ماتت خلف النافذة . لا حركة . لا صوت سقوط ثمرة على الأرض .

سكان المبنى المقابل توقفوا تماماً عن الأنين . استحال المبنى قلعة تعذيب مات أهلها منذ زمن بعيد .. حتى الاعشاب

السامة الـتي تنمو بغزارة على جدرانهـا توقفت في هـذه اللحظة ...

مات كل شيء .. والجثث الثقيلة كلها تطفو فوق صدري .. والخوف مات خوفاً ..

جثث الرياح ممددة تحت الاشجار .. وجثث الاصوات .. والليل الوباء توقف عن الانتشار في عروق الوجود الميتـة . . والعتمة المهيمنة ليست إلاّ خيال اليد المجهولة المعقوفة الأظافر التي ربمـا تهوم في هذه اللحظة بالذات فوق المكان . والخوف مات فيه الترقب والنبض والتشنج .. أحسه غازاً فولاذياً كثيفاً ينسكب ببطء من جثث الاشياء كلهـا ويتجمّع في الارض ويعلو ببطء طوفـان غادر الصمت ليغرق العالم .. اصرخ : زبيدة ..

لا تتحرك . أخرج من الغرفة مسعورة . الممشى الطويـل ميت . لا حسّ . لا حركة . لا ضوء من شقوق الابواب . أنا وحيدة في ساحة معركة انتهت منذ ساعات وكف الجرحى عن الانين وماتوا جميعاً .. خائفة . (يا فراس .. يا فراس أين نبض عروقك ؟.. أريد أن أتحسسها .. ان أفرح بملمس الحياة وتوثبها) .. على الدرج أركض مجنونة .. إلى الهاتف . أمسك بالسماعة وأدير أرقامك . الهـاتف أيضاً ميت . الجسور كلها مقطعة .. أقفز مجنونة إلى لوحة الازرار المئة ، كل زر فيها موصول باحدى الغرف المئة .. سأضغط عليها كلها دفعة واحدة لتدق الاجراس في الغرف كلها ويستيقظ الجميـع .. طوفان الخوف الفولاذي يعلو ويعلو . يصـل حتى ذقني .

بعد قليل أختنق ، وأعجز عن ابتلاع الهواء الميت الثقيل . .

التصق بجسدي باللوحة .. التصق بها بشراسة .. التصق بالازرار واضغط وأتمنى لو تمتصني الازرار وتحملني الاسلاك المئة لتوزعني على الغرف كلها ولأكون في وقت واحد مع مئتين من المخلوقات الحية التي تنام في الليل .. الاجراس لم تمت . تنطلق مسعورة . مئة جرس في لحظة واحدة . ضجيج رائع .. ستستيقظ الجثث بقية الليل ولن أبقى وحيدة مع الموت الميت .. بفرح أسمع جلبتهن ... بشماتة أنصت إلى وقع أقدامهن على الدرج .. أتسلل إلى القبو لاختبىء وأصواتهن الهلعة الهابطة نحو اللوحة تطربني .. حوارهن الفزع يريحني .. الآن ، كلهن مثلي ، خائفات وحائرات وغير نائمات يبحثن عن الشبح المزعج دائماً .. القبو بشع .. بقايا الوليمة في الظلمة لا حد لبشاعتها .. بقايا الاكل ، بقايا الروائح .. أعقاب اللفافات المستهلكة ، أعقاب النكات وعبارات الحب المستهلكة .. بقايا الزهور .. الكراسي الفارغة المشوشة الترتيب .. الزينات الممزقة .. القبو وجه مومس عجوز ساح ماكياجها .. لماذا لم يغادروا المكان وكل شيء في أوجه ؟.. لماذا نشوه الأشياء باصرارنا على استهلاكها حتى النهاية ؟.. (ربما انتصرنا على البشاعة ولو لمرة يا فراس ... وليمتنا ما تزال في أولها ... نكاتنا لم نقلها بعد ... أسماكنا ما زالت حارة ومكسوة باللحم ، لم نعر عظامها بعد ، ولن تفوح منها قط رائحة زنخة ... وزهورنا لم نقطفها ، وموسيقانا لم نرقص على ألحانها ، ولم نبدأ استمتاعنا بها .. ربما لم تكن جريمة أن نفترق ، ربما كانت

الجريمة هي ان لا نجرؤ على ارتكابها في الوقت المناسب ... الآن ، سيظل اسمك أبداً يأكلني حباً وشوقاً وحنيناً وجوعاً كلما ذكرته .. وسأظل أحلم بالساعات التي لن تصدأ لأنها لن تكون ، وسأظل أستمتع بقبلاتك التي لن أسأمها لأنني لن أنالها ، وستظل شفتاك حارتين بين شفتي ، لن تبردا لأنني لو أطبقت عليهما لما وجدتهما) ..

حزن لا حد لمرارته كان سيعم في القبو لو لم يتم الحفل .. ولو لم تفح رائحة النهاية المقرفة .. لا مفر . حزن أو قرف ... لماذا لا يسمح لنا بأن نصنع مصيراً ثالثاً ؟..

كيف وأنا سجينة .. وصوت السجان الذي أحببته انطفأ .. أتسلل على الدرج . شيء لا يصدق . هدوء عجيب . عدن إلى النوم ، ببساطة . كلهن راضيات بالحزن أو القرف . كأن سكان البناء الآخر من الذين لا يطمعون في مصير ثالث .. ربما عوقبوا لطمعهم بمصير ثالث .. (يا فراس .. ربما دون أن أدري كنت أطمع بمصير ثالث لنا) لست خائفة .. لم يبق ما يمكن أن يخيفني .. يجب أن أهرب .. الجدران تقترب مني ، يجب أن أهرب .. يجب أن أطير من هنا .. (المكان بلا أفيونك لا يطاق يا فراس) ارفع رأسي إلى السقف .. لقد هربت الملائكة التي كانت ملصقة هناك .. ترى هل نبتت أجنحتي الآن بعد هذه الأعوام الطويلة ...

(— لم تحاول طفلة الهرب من هـذا المكان قبل اليوم .. لو لم يجدك الحارس لأكلتك ذئاب برمانا .. ورغم غطاء الراهبة على رأسها ، رأيت شعرها ينتصب ، ورأسها يستحيل

إلى قنفذ شرس . فظللت أتأملها بدهشة ، ورأسي يكاد لا يصل إلى خصرها ..

– انظري إلى الأرض يا طفلة الشيطان ..

ونظرت إلى السقف .

وفي السقف كانت هنالك صور ملائكة لها أجنحة ، رأيتها للمرة الاولى يوم جاءت بي أمي إلى هذا المكان ..

أدهشني انها ما زالت في السقف ، ولم تغادر ذلك المكان الفظيع رغم ان لها أجنحة ..

وقررت .. غداً حينما أكبر وتطول أجنحتي سأهرب وأطير بعيداً بعيداً ..

وكنت في كل صباح أتحسس كتفي بحثاً عن أجنحتي التي ستطول ..) ..

يجب أن أخرج الآن من هذا المكان . سأهرب إلى الغابة .. سأتسلل من النافذة الضيقة الوحيدة التي لا تغطيها القضبان .. ربما استطعت التسلل .. غرفة الالعاب ضيقة ومظلمة .. سوف أهرب ، سوف أهرب .. ضربات قلبي مرتفعة . ربما أيقظت المديرة التي لم يوقظها قرع الاجراس المئة .. (أين همسك يخدرني ، يعيدني إلى فراشي مهدئاً) أحمل كرسياً وترتجف يداي وأنا أحاول أن أضعه تحت النافذة بلا صوت . أصعد عليه . أفتحها . نحيب طويل حزين ممطوط من البناء المقابل . أرفع ركبتي إلى النافذة وأنا أمسك بأحجارها من الخارج وأتمدد بطرف جسدي عليها .. نحيب آخر ، ثم عشرات الصرخات من نباح حاد غريب .. ربما كانوا في البناء الآخر فرحين من أجلي لأن أجنحتي طالت وها أنا أهرب .. بجسدي النحيل

ورأسي المحني أنزلق على النافذة إلى طرفها الآخر ويصبح رأسي ونصفي في الخارج .. أستوي جالسة بصعوبة ، نصف مثنية إلى الداخل لاحفظ توازني ..

أقفز إلى الأرض ، أحسني أطير من النافذة ..

أنا في الغابة .. حرة ..

حزينة لأنني أعرف ان لا ذئب فيها (فراس ، يا ذئبي الطيب . كيف ... كيف استطعنا أن نفترق ؟) ..

أنا في الغابة .. وحرة ...

وماذا بعد ؟...

لذة عجيبة في أن أتحرك طليقة لمجرد انني أريد أن أتحرك ، أن أطير من النافذة وأعود ليلى حينما يكون علي أن أتمدد في فراش أمامه باب كتب عليه رقم ٢٠٢ .. أقفز طليقة .. أركض طليقة وأفتح ذراعي لأضمّ الريح والليل والصمت المريب ...

إحساس يشبه فرحاً عجوزاً يغمرني ..

يكبر ويكبر فيصبح فرحاً طفلاً ..

توق غامض الى ما لا أدريه ينبض في أجنحتي وأنا أطير وأطير .. الغابة .. أنا طليقة في الغابة ..

كلهنّ نائمات ، يتلقين من النوم أحلامهن صدقة ... أنا وحدي أطير من بين القضبان لأكتشف أحلامي ، لأصنعها ..

برد برد .. تعبت من الركض .. برد على جبيني تتجمد حبات العرق .. أجنحتي تضمر .. بصعوبة أنتزع خطواتي .. بصعوبة أدبّ على التراب الرطب الموحل .

صمت مريب في المجهول الذي أبحث عنه .. صمت مريب يفوح من رائحة الاغصان العملاقة والظلمة المشبوهة وظلالهـا اللئيمة ...

الجذوع خشنة تجرح خدي .. همسات وأنين وأصوات غامضة لمؤامرات مجهولة تحـاك في الاجمات ضدي .. عـلى شجرة ما سوف تمتد اليد المجهولة ذات الأظافر لتشنقني .. وحينما تهز الريح جثتي ويتعالى قرع الطبول سوف تنهال علي الدبابيس والرماح ، تغرس في صدري . وإذا بكيت فسيخيفني صوتي لأنني سأنبح نباحاً طويلاً مسعوراً يضيع مع أصوات قافلة العذاب في البناء المرعب ..

الغابة قاسية ، كالمدينة ، (كالبستاني هول) ، كالجانب الآخر من التل ونظرات أهله خلف زجاج مقاهيهم ..

عبثاً أصرخ .. في حلقي انتحرت الاصوات رعباً ، وشيء رخو سقط على رقبتي . أحس بما يشبه الملاقط الدقيقة يتمسك بلحمي أتقزز هلعاً ..

بلا وعي أنتزعه وأرمي به .. ربما كان دودة كبيرة . . . صرصاراً ... أو ربما ..

آلاف الصور لمختلف الحشرات التي طالما درستها ورأيت صورها في كتبي أحسها تتحرك الآن في موكب مخيف .. تزحف في القمة هابطة إحدى الاشجار وتتحرك نحوي ... آلاف الديدان والعلق والسرطانات والهوام التي طالما شرحتها في المخـابر وثبتت الدبابيس في جسدها على قرص شمعي في حوض ، وغمرتها بمختلف المحاليل ومزقتها بمشرطي ، كلها تزحف نحوي حـاقدة نهمة ، تتسلق جسدي وتنفذ إلى لحمي خـلال

فتحات ثوب نومي الهزيـل ... أسمع صوت انسحاق بعضها تحت خفّي الرقيق وأكاد أسمع انسحاق أسناني المتشنجة ..

الغابة كبيرة .. في الليل ، في النهار ، في الشوارع ، في العيون ، الغـابة القاسية والهمسات المريبة والدبابيس والمؤامرات في الزوايا وأنا وحيدة وحيدة وحيدة : (يا فراس أيـن أفيوني ؟) ..

أنا حرة في الغابة ..

ما الفرق ؟.. بعد دقائق أصل أسوارها ، وأمام الاسـوار حراس ، وخلف الاسوار غابة ، وفي الصباح غابة .. لا شيء يتبدل سوى الاصوات والألوان ويظل المضمون واحداً والهلع والبرد ...

على الدرج الحجري أصعد بصعوبة ... في الليل يقطن العالم سكان آخرون ، وعلى الدرج الذي يغلي بالطالبات في النهـار تتحرك الآن عشرات الديـدان والحشرات الأخرى الفـظيعـة .. مـا الفرق ما دمت أبداً خائفة ومتقززة ووحيدة .. (الا أيام كنا نهبط معاً ، معك وحدك يا فراس كان الغاب ينحسر) .

صرت قرب البناء الآخر ...

الأصوات عادت تنطلق . قافلة العذاب بأكملها تعوي والدم يسيل من ألسنتها المقطعة على حديد أقفاصها .. والليل بـارد وحزين (يا فراس .. أين يدك ؟ دافئة وكبيرة كسقف دار .. أتكوم في قبضتها وأخفي رأسي تحت إحدى أظافرها) ..

يمزقني أن أذكر .. ربما لن أبكي ضياعي في صـدرك ، دفء عناقك ، نشوة انسحاقي ، همجية انطفائي قطعة من الحديد المحمى تنتشي في الماء المثلج .. يمزقني أن أذكر يدك (يـدك

يا فراس دافئة وكبيرة كسقف دار .. أتكوم في قبضتها وأخفي رأسي تحت إحدى أظافرها) .

أجنحتي تتكسر ...

انهار على الدرج الحجري . في فمي دم وزجاج مسحوق .. بين يدي أدفن وجهي .

أفقد كل قدرة على الخوف أو التفكير أو الحركة أو الموت ..

أحس بالهزيمة .. بهزيمة كبيرة في محاولة التصاقي بشيء ما .. بيد .. بثدي .. بغيمة .. بجذع شجرة .. بدانتيلا وجه أمي .. بالغابة . بالليل .. بقافلة الغرباء .. بقبيلة « البستاني هول » .. بفراس ..

مهزومة .. مهزومة .. راية منكّسة على حافة جسر مهدوم ..

شيء ما يدبّ ويتحرك ملتصقاً بساقي ... أحسّه يروح ويجيء ..

بلا خوف . يبطء . بلا مبالاة الجثث أرفع رأسي .. بعيني اللتين اعتادتا الظلمة أراه ..

يروح ويجيء متمسحاً بساقي .. يهمهم ، لعله عاجز عن أن يبلغني رسالة ما ..

أتحسسه بيدي .. يزداد تمسحاً ووداً غامضاً .. أحمله إلى صدري .. يستسلم بود عجيب .. يدفن رأسه في عنقي . أحمله وأنهض به عن الدرج .. يسترخي بتعب من لم ينم عصوراً .. وأنا أيضاً متعبة يأكلني النعاس ..

يلتصق بي دافئاً ودوداً عجيب الالفة .. أهمس : مدجج ..

هل أنت أيضاً خائف ؟..

يزداد التصاقاً بعنقي وأنا أهبط الدرج وأنحرف في الغـابة لاتجنب حارس «البستاني هول» ..

— مدجج .. هل أمك أنت أيضاً سيدة مجتمع ؟..

تحت النافذة المفتوحة التي هربت منها أقف .

— مدجج .. هل أنت أيضاً عاجز عن النوم ؟..

هل أنت خائف ومهزوم ؟..

يزداد تكوماً في صدري . يخفي رأسه تماماً في عنقي ، واحس بلفح انفاسه الحارة رغم الصقيع ..

— مدجج .. تعال معي .. كن شريراً مثلي ..

ارفعه إلى النافذة واضعه على حافتها .

يربض هادئاً لا يموء ولا يتحرك . أتلفت حولي . لا شيء يمكن الصعود عليه كي أتسلق النافذة . في الظلمة عيناه تلتمعان بما يشبه الترقب .. صرصور كبير يتحرك قرب قدمي . أضع يدي على طرف النافذة وأستميت لأرفع جسدي .. على الحجر الخشن اسمع جلدي يتمزق عند الركبتين .. أظل أكافح مسعورة لاصعد .. شيء حار يسيل على ساقي .. أنجح في وضع إحدى ركبتي على النافذة .. مدجج يزيح لي مكاناً بصمت . أدخل رأسي ونصف جسدي من الحديقة إلى الغرفة . يقفز مدجج إلى أرضها ويقف منتظراً . بهدوء أدلي بساقي إلى الكرسي وأقف عليه . أغلق النافذة . أهبط عنه وأبعده من تحتها . أحمله فيعود إلى استرخائه المحبب على صدري . أصعد الدرج إلى غرفتي .

أمر بغرفة المديرة وأسمعها تصرخ بي كما ستصرخ غداً : ستكون عقوبتك كبيرة ...

* عدتِ إلى صنع الدمى وغرس الدبابيس .. مثل هـــذه الطقوس ممنوعة في مكان مكرّس للعلم ..

* قطع شريط الهاتف : أنتِ حتماً المتهمة ، فقد سبق لكِ إفساد اللوحات الفنية في غرفة الاستقبال برسم شوارب لوجوهها ، وآذان قطط وأذناب لها .. وسبق لـكِ سكب الحبر على الثياب المنشورة في غرف الغسيل .. وإخافة الفتيات بالجماجم .. وقرع الاجراس وايقاظ الجميع .. لولا أملكِ السيدة الراقية لما تركتكِ لحظة هنا ..

* ممنوع ادخـال الحيوانات إلى الغرف .. وهذا القط قضى ليلته في غرفتكِ حاملاً معه الأمراض والقذارة .

أزداد ضماً له ، أحبه حب شريكين في جريمة . أظل اتسلل على الدرج .

أمام الغرفة ٢٠٢ أحبس أنفاسي وأفتح الباب بهدوء . زبيدة نائمة طبعاً . أكاد أنفجر ضاحكة بأعلى صوتي وأنا أذكر عبارتها التقليدية (لم أعرف طعم النوم منذ جئت إلى هـــذه الغرفـة المسكونة) ...

بين الأغطية نندس بصمت ..

ـــ سجننا فظيع ، لكنه دافئ على الاقل ، وحشراته لا تغادر فراشها وغرفها ...

يموء بصوت خافت كهمسي .. جوّ محبّب من الحوار الغامض ، ثم رأسه مدفون في عنقي ، وجسده الحار يعلو ويهبط تحت يدي طفلاً يفيض انساً والفة ..

– مدجج .. هل تسمعني ؟.. فراس مضى ... افترقنا اليوم ..

يمدّ يده الصغيرة يربت بها على وجهي بما يشبه الحنان . يصمت تماماً كأنما يحبس أنفاسه بانتظار بقية الحكاية ..

متعبة .. أكثر تعباً من أن أستعيد التفاصيل .. أعصابي اهترأت ، حتى الحفارة فقدت مفعولها .. أعصابي تسترخي .. العناد والشراسة والمقاومة والتحدي .. كل شيء يسترخي .. (يا فراس .. أين يداك تحلاّن ضفيرتي ، وأصابعك تتخلل شعري ثم تغطيني بعناية ، وتقبّلني على جبيني لأنام .. مدجج يزداد التصاقاً بي .. أصابعي تتخلل شعره . أغطيه معي بعناية أقبّله على جبينه لينام ... ربما في المرآة المقابلة لفراشي الآن لوحة لطفلين في الغاب التصق أحدهما بالآخر) ..

– مدجج .. هل رأيت اليد المجهولة ذات الاظافر المعقوفة ؟

أحسه يرتعد . ربما كان هو أيضاً يجهل صاحبها .

– مدجج .. هل أمك أيضاً سيدة مجتمع كبيرة ؟..

رغم الظلام يخيل إلي انه يبكي . على خدي دمعة انحدرت من إحدى عيوننا الأربع ..

– مدجج .. هل تستطيع الصلاة ؟.. كلما فكرت بفراس تمنيت لو أصلّي بطريقة ما ..

شلل مريح يستولي على أعصابي .. خدر ، شيء مبهم

يثقل على جسدي ، ويربض على الصور المتلاحقة في أعماقي ..

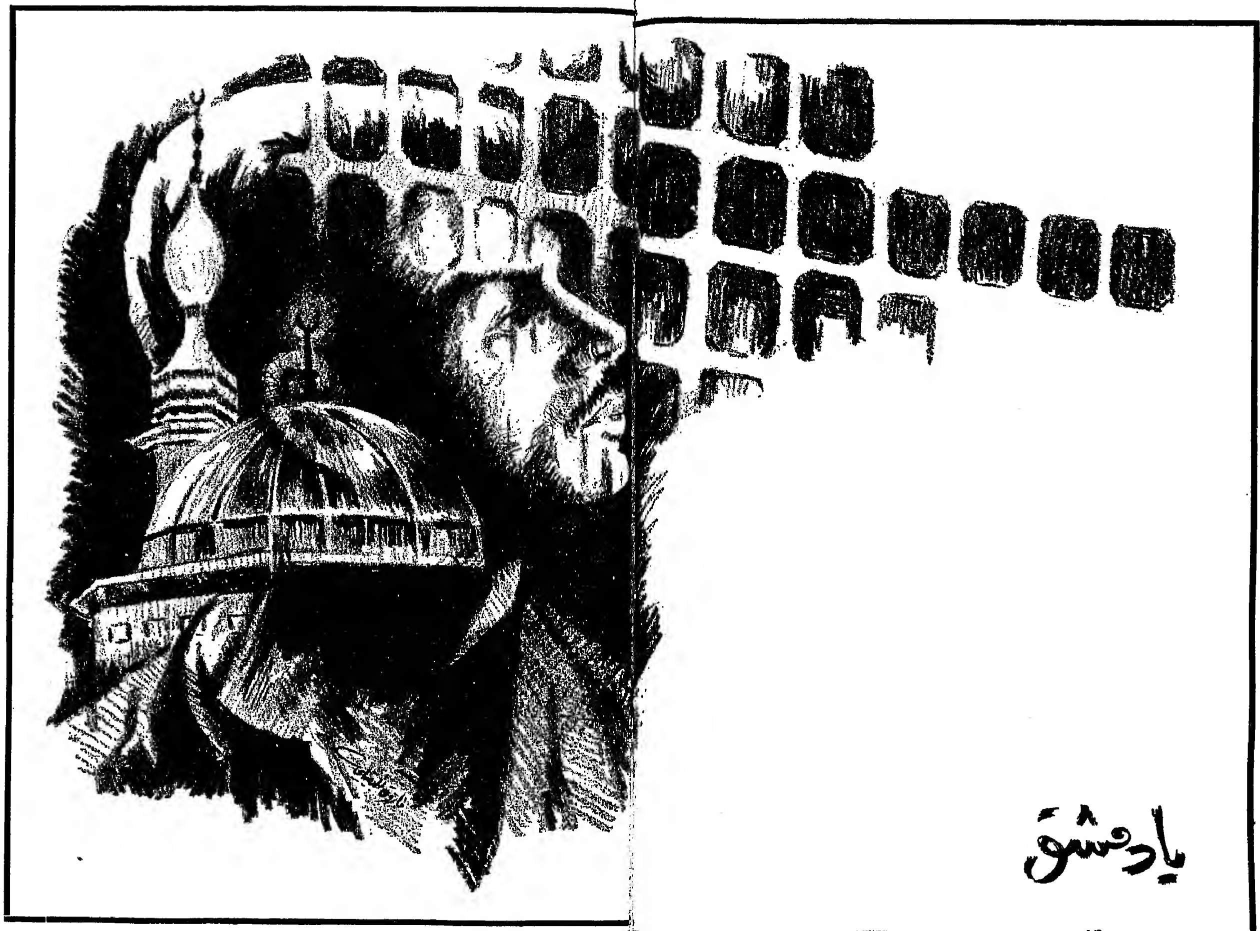
— قل لي : هل يمكن أن يستمر هذا العذاب طويلاً قبل أن التقي بخدر ما ؟.. « أحببته » كلمة سخيفة تقولها البنات الطيبات لامهاتهن .. هل وجدت كلمة أخرى ..

وأنا أفقد القدرة على التركيز ، أحس بلسانه الخشن يلعق خدي بحنان ، وبدموع كثيرة تغسل وجهي ، وبالسكينة الدامعة بالجزيرة ، انحسر الماء عنها بعد أن جرف كل شيء ..

ويظل بلسانه الخشن يلعق خدي بحنان . . يده الصغيرة على خدي .. تكبر وتكبر .. دافئة وكبيرة كسقف دار ...

أحس بيدي ذات الاظافر المعقوفة تسترخي ! . .

تُرجمت هذه القصة إلى الانكليزية .


يا دمشق

وأنا ألوك بقايا الضباب في فمي (**ليتني أجده في الداخل بانتظاري وينتهي هذا الكابوس**) ، وأنا اتسلق الدرج العتيق راكضاً ملهوفاً ، أشعر برغبة لا تقاوم في البكاء ، بكاء طويل مرير في مكان ما من هذه المدينة ، في أي مكان منهـا فأنا أعرف أن أحداً لن يسمعه ، فالمطر لا ينقطع ، وإن كفّ عن انتحابه برهة ، فالضباب ينبع من الأرصفة ، ومن النوافذ ، ومن العيون والأفواه ، يغلف كلاً منا في شرنقة لا تخترقها اللغة بفصاحتها أو أنينها ...

حلقي عش يغلي بنمل شره ... إذا لم أجده في الغرفة ، لا مفر من أن أبكي بكاء رجل مقيد يعرون حبيبته أمام عينيه . طويلا طويلا سأبكي (**— ألا تخجل من البكاء يا حسان ؟... وكان أبي قد عاد لتوه من صلاة الجمعة ... وظللت أنتحب بينما سارعت أمي من المطبـخ : « بابا .. أكرم ضربني .. » وازداد التصاقاً بقامته المديدة وأسند رأسي إلى ركبته متسولاً حنانه .. يبعدني عنه بخشونة ، ويصرخ بي بلهجة تليق بزعيم حي الشاغور : خذ البندقية والحق به .. لا تبكِ ثانيـة في عمرك .. عيب**) ..

تضمحل رغبتي في البكاء ، وفي حلقي تنمو نبتة صبار جافة أبكي بمسامي عرقاً بارداً ، أتوقف أمام باب الغرفة . وأبحث عن حلقة المفاتيح .

ليتني أجد أكرم جالساً قرب آلة التسجيل ، منصتاً إلى شريط دفع ثمن عشائنا اجرة لتسجيله ، فنسهر معاً نقتات بالموسيقى بدلاً من « الجونبون » .. (**يا ابني لا تأكل لحم الخنزير وإلا أصبح وجهك أسود**) .. لو أنها ترى بياض بشرة « آكلات الجونبون » .. لو انها ترى سوزان (**لما هتفت الى سوزان شاكياً اختفاء اكرم منذ أيام ثلاثة هزأت بي : أيها الشرقي المضحك .. لماذا تفترض انه مرتبط بك ، وعليه أن يقدم لك تقريراً عن مكانه ؟.. تنقضي بضعة أسابيع أحياناً قبل أن أرى أهلي ، ولم يحدث مرة أن بلغوا البوليس ، أو تشردوا في الشوارع**) لم أكن أدري انها عاجزة عن فهمي إلى هذا الحد ... مرتان هتفت لها بعد ذلك خلال هذه الأيام العشرة ، وكان ارتياحي كبيراً لما لم أجدها ...

أفتح باب غرفتي ، وقبل أن أندفع نحو فراشي قذيفة مطفأة ، أرى بهلع ان فراشه ما زال فارغاً !.. ما زال كما كان صباح غادره ولم يعد ، مقعراً وفقاً لخطوط جسده العملاق .

على فراشي انهار . تتكثف ساعات الهلع المجنون والتعب في رأسي ، أحس انني ما زلت أدور من شارع إلى شارع أبحث عن رأسه الاسود ، بين آلاف الرؤوس الشقر (**— لا تخف ... لا تنظر خلفك والا سقطت .. انظر إلى رأسي واتبعني .**

كنا نتسلق قاسيون ، أعوامنا العشرة تبحث عن الكنز المخزون في قاسيون والذي حدثتنا أمنا عنه ... في منتصف الطريق كنت أخاف ، عند ثلثيه كنت أقول اني خائف . حينما أرى دمشق بعيدة في القاع وجميلة وبريئة كنت أصرخ ، وبحزم يهمس أكرم زعيم عصابتنا : لا تنظروا خلفكم .. انظروا إلى رأسي .. في المظاهرات كنت أبحث عن رأسه حينما أسمع الرصاص ينطلق. وأظل أتقدم) .. عشرة أيام . وأنا أدور من حانة إلى حانة ، من دار صديقة له إلى ركن محبب .. ولا أثر لأكرم .

عشرة أيام ... زورت لأبيه رسالة رداً على رسالته ، وربما كانت أرق ما استلمه الأب من أكرم منذ رحيله . أما رسالة أبي فلم أرد عليها ...

عشرة أيام ... في الليـالي الثلاث الأولى ، كنت ما أزال قادراً على نوم متقطع ، أهب منـه مذعوراً ، وأنا أسمع صورة حبيبته سهام ، تنتحب في اطارها المواجه لسريره بصوت خافت ، مرير ، يذكرني بنواح الريح في زقاق بيتنا الضيـق (مع نواح الريح في الليالي العاصفة كنت أدخل الدار عنـد الفجر على رؤوس أصابعي مستأنساً بشخير أبي ، لاعناً صفير الريح التي أعرف انها تبقي أمي مستيقظة .. ثم لا ألبث أن أسمع صوتها : « يا حسان .. صلّ الصبح قبل أن تنام » .. وأرتمي في فراشي دون أن أخلع قميصي الملطّـخ بحمـرة الشفاه) ...

عشرة أيام .. في اليوم الثالث بلغت الشرطة .. في اليوم الرابع طلبوا مني الذهاب لتفقده بين جثث أصحابها مجهولو الهوية ... (هيا تقدم .. ما بالك خائفاً ؟.. لا تنس أنها جثث ميتة ،

أنت الشيء الوحيد الحي هنا .. وتركني وعاد إلى الباب ، ووجدتني بين عشرات الجثث الممددة على الطاولات الحجرية ، بعضها شبه مشوه ، بعضها فقد عضواً من أعضائه .. درت في المسلخ الكبير مذهولاً ، لم يحدث ان تعرفت على الموت من قبل في هذه الصورة العارية العزلاء .. نظرات زرق وملامح منتفخة ورائحة عفن بارد ، وميتون بلا أسماء ، بلا مراسيم ، بلا وليمة ، بلا قبور .. بلا شيء سوى الموت الحقير بلا أمجاد ولا تصعيد شاعري للموقف) .. عشرة أيام .. في كل يوم من الأيام السبعة الأخيرة ابدأ طوافي بالمسلخ ..

في اليوم الثاني لم أشعر بأي رعب .. في اليوم الثالث غمرني خدر عجيب وأنا أرى تعبير القرف على أفواه الجثث ..

في اليوم الرابع بدأت آلفها .. افتقدت بعض الوجوه التي لفتت نظري .. أعجبت بالتحدي المرير الذي يطل من جمود العضلات المتصلبة ..

في اليوم الخامس هرعت إلى المسلخ .. كانت قوة خفية تشدني إلى الموت العاري هناك .. الموت بلا أقنعة ، بلا طقوس .. **(أكرم ، أحس انك بطريقة ما هناك .. وانني أنا أيضاً هناك ممدد على إحدى المناضد الحجرية جثة زرقاء باردة ربما كان وجهها إلى الأرض ولو مددت يدي وادرتها نحوي لرأيت وجهي)** ..

في اليوم السادس أحسست ان المدينة التي أتحرك فيها بحثاً عن أكرم امتداد كبير للمسلخ ، ورائحة العفن تفوح حتى من المطر ، ومن الضباب ، وربما من عطر سوزان ..

(سوزان .. أحب رائحة البارفان هذه .. ما اسمها ؟ هل هي « كارفن » ؟.

– أجل .. انك تمتدح ذوقي دائماً ..

– الحقيقة اني أحبها لأنها تذكرني بحبيبة غالية خلفتها في دمشق .. يبدو اننا نحب الموسيقى والعطور لأنها تعيد خلق أجواء سبق لنا أن عشناها .. انها كالفن ، أسلوب نحارب به موت اللحظة ، أسلوب لاعادتها إلى الحياة ، لبعث ظلالها وأصدائها ولو لبرهة ...

– وهل اسمها يشبه اسمي أيضاً ...

– أجل ! اسمها سوسن يا سوزان !..

– طباعها ، شخصيتها ، أفكارها ، هل تشبهني أيضاً ؟..

– أجل ! لها عنادك واعتدادك وطموحك وقوة شخصيتك أي جميع الصفات التي أحبها فيك ..

– وهل ستتزوج منها حينما تعود ؟..

– طبعاً لا ..

– لماذا ؟

– لأن لها هذه الصفات !...

– أيها الشرقي المتناقض ..) ..

في اليوم السابع ، دخلت إلى المسلخ كأنني ذاهب إلى الفندق الذي أعيش فيه .. بصلابة واستسلام من أدرك الحقيقة ، كنت أتجول بينها ، احدثها بصمتي ، وتحدثني باشمئزازها وتحديها ..

واكرم لم يعد ، وأنا من شارع إلى شارع ، لا أزيح نظراتي عن شريط الرؤوس المتحرك إلا لأرقب اشارات المرور الحمر والخضر ، أو لأتبين مدخل دهاليز المترو في الضباب ..

والرؤوس تطفو ، ثم تغوص في الضباب .

عشرة أيام .. أسير وأسير وأسير .. كم أنا متعب .. ليتني أنام .. ماذا حدث لك يا اكرم ؟..

أغمض عيني واسترخي برهة .. أسقط في بئر مظلمة .. رأس اكرم ممدد تحت عجلات تطحنه .. رأس اكرم مقطوع على صينية فضية ترقص لها شقراء شبه عارية .. رأسه يتدحرج بين أقدام ملايين الراكضين المسرعين ... رأسه سقط في الآلة القاطعة لاجهزة حديدية ، انه يفرم بلا توقف .. أصرخ .. اسمع صوتي وأنا أصرخ وأهب مذعوراً من نومي ... ربما غفوت بضع دقائق لا أكثر ..

أشعل النور إلى جانب فراشي .. هذه رسالة أبي التي لم أجب عليها .. يقول : « رمضان قد جاء فلا تترك الصيام يا بنيّ .. وقل لجارتك أن توقظك وقت السحور وقد تسحّرك معها » .. لماذا لا أجعله يفهم ما أواجه ؟.. لماذا لا أقول له ان لدى جارتي الآن عشيقها ، وان ملايين الجارات هنا لا يعرفن ما هو رمضان ، واني إذا حدث ومت جوعاً ، لن أجد من يقول لي : « تفضل » إذا لم أدفع ثمن الملح والماء !..

هذا العالم الحلو الذي ربينا عليه ، لماذا لا يوجد إلاّ في خيالاتهم ؟.. (**ـ ماذا تقرأ يا حسان ؟..**

ـ جغرافيا يا بابا .. يقولون ان الشمس تشرق من الشرق وتغرب في الغرب ..

ـ الشمس يا ابني تشرق من الغوطة حيث قطعنا رقاب الفرنسيين ، وتغرب وراء قاسيون ، قرب المئذنة التي كان جدك يؤذن فيها ، والتي نذرت للرحمن أن اؤذن فيها كل يوم جمعة ،

حينما وفقني الله في تجارتي) ..

أشعر بأنني أختنق . أزحف نحو النافذة . الصق وجهي بالزجاج البارد ، لا شيء سوى الضباب في الخارج ، لا جواب سوى سجن الزجاج وصمت الضباب الذي يفور بلؤم غاز خانق وانا ، سمكة سجين ، أتمسح بالزجاج **(هل أطعمت السمكات يا حسان ؟...**

ــ ماما .. ليست جائعة .. لا أدري ما بها ..

وكنت أتأمل عيونها الكبيرة الحزينة وهي تحاول دفع زجاج الوعاء برأسها .. وحاولت أن أحمل وعاءها عن البحرة واركض به لألقي بها في نهر بردى لترحل إلى المنابع والمصبات وترى من أين تشرق الشمس .. ولكنني لم أستطع حمله . كان ثقيلاً أكبر حجماً مني . وقررت : يوم أكبر لن أترك سمكة سجينة) ..

اني وحيد كما لم أكن أبداً ، لقد مضى أكرم ومضت معه دمشق التي ظللنا نعيشها في قلب لندن .. اني الآن وحيد ، أتحرك في المسلخ بعيداً عن كل شيء ... أين أنت يا دمشق ؟. يا غالية .. تنامين في صدر رمضان كأنك أديت كل ما عليك من جزية للحياة .. اني أراك الآن .. ازقتك الضيقة يرتمي عليها النور الواحد بعد الآخر .. يستيقظون للسحور ويفتحون النوافذ يرحبون بالقمر الاسطورة .. والقمر لم يعد اسطورة ، صار موقعاً استراتيجياً يتسابقون لابتلاعه .. صوت المؤذن يتعالى مع النسيم البارد المنعش ، ورائحة الطعام تفوح والأدعية والصلوات، وأبي بوجهه النظيف ، وأمي توقظ اخوتي .. والصفاء ، وعالمنا الصغير البريء ، لو يدرون انه في فم تمساح .. ليتهم يسمحون

لنا بأن نعرف ، وان نواجههم بما نعرف كي ننقذ المدينة قبل أن يلوك التمساح آلهتها وقيمها ولا تقوى على الدفاع عنها .. أين أنت يا دمشق .. أيتها الوديعة الأصيلة ، لماذا لا تنبست أظافرك دون أن يتشوه حنانك ؟.. وكبرياؤك التي ربينا عليها ، لا نملك إلا أن نظل أوفياء لها ، لماذا لا تفهمين اننا ما رفضناك إلا لأننا أحببناك ... لأننا أدركنا عجزنا عن الانتماء إلى سواك ، لأن شتلنا في أرض غريبة مستحيل ، فنحن رغماً عنا نعبد تلك الاصالة الانسانية فيك ، ومن أجلها نثور عليك ... يا دمشق .. يا نبع قاسيون ويا كنزه .. يا ليلك الوديع ، والوجوه الراضية المطمئنة تلتف الآن مترابطة سعيدة حول مائدة السحور ..

(يا أثداءك المتحجرة يا دمشق .. يا أمي العاقة المعبودة .. كان اكرم يردد ذلك بمرارة . وخيّل إليّ انه سوف يضرب رأسه بالجدار ...

.. ليتهم يؤمنون معنا ، بأن الوحش الحديدي هنا ، لا يحارب بحجابات البدائيين ، مهما كان صدقهم) ..

أظل أروح وأجيء في الغرفة .. خشب الأرضية العتيق يصر تحت أقدامي .. أحس بأنني أسير فوق تابوت ، سوف ينفتح بين برهة وأخرى تحت قدمي وأسقط إلى داخله . قشعريرة باردة تغمرني . أتعثر بمنضدة صغيرة عليها أشرطتنا المسجلة واسطواناتنا .. أنحني لالتقاطها .. هذه هي سيمفونية برامز الأولى ..

(كانت ألحانها تغمر الغرفة ، وسوزان ممددة إلى جانبي ، واكرم لما يعد بعد . وكنت أحس بأن مآذن دمشق تنهار فوق رأسي حجراً حجراً ودمشق تنهار في عيني ، وانني أحبّها

وأحبّها وأرفض أن أهجرها ... وسوزان زنخة وبشعة كبقايا سمكة في صحن ..

– ماذا بك ؟ هل تذكرت سوسن ؟..

وانتفضت ملسوعاً ، ضايقني أن تلفظ اسم سوسن في هذه الغرفة اللزجة ، التي تفوح منها رائحة مخدر يفقد تأثيره في بعض اللحظات .. بقسوة أجبتها : لا تلفظي اسمها في مثل هـــذه الجلسات .. استدارت في الفراش هازئة لا مبالية ، بسخرية همست : متناقضون .. تخفون أعينكم باحدى يديكم كي لا تروا ما تفعلونه باليد الأخرى ... وظلت تضحك .. مرة حـــدثت سوسن بهذه اللهجة القاسية ، ظلت أسبوعاً بلا طعام ، وربمـــا بلا نوم) .

أتابع لملمة الاشرطة المبعثرة .. هذا الشريط كدت أنساه .. هدية والدي الأخيرة لي ..

(في المطار قدمه إليّ وهو يقول : سجلت لك فيه الاذان بصوتي .. أجعله ملاذك الأخير وهو بأذن الله سيفتح لك الأبواب الموصدة . وعند أبواب لندن أخفيته في محفظة أوراقي وأخرجت جواز سفري ومحفظة نقودي .. ان للعالم منطقاً آخر ولا مفر من الحوار معه) .

أترك الشريط على المنضدة . أهرب من الغرفة ، سأعاود البحث عن اكرم رفيق نضالي ، رفيق ضياعي ..

من جديد أعوم في بحر الضباب ، أحسه ينبع من رأسي ، من أفكاري المشوشة المشتتة .. من ضياعي وحيرتي وانفصالي الحاد عن أية مجموعة بشرية .

(أين عيناك يا سوسن ؟ صافيتان صريحتان بلا ضباب ، كان

يضايقني صفاؤهما ووضوحهما !!.. أين انضمامك الحاسم إلى كياني ، تأكلين حينما أجوع ، تئنين ألماً حينما أمسك بحبات « الاسبرو » وأتهيأ لابتلاعها وتهمسين : رأسك يؤلمني يا حسان) ..

فلاستقل « الباص » ، سألتقي بعدد من الناس مضطرين للارتباط في مكان واحد مسافة محطة واحدة على الأقل ..

قاطعة التذاكر العجوز تتناول النقود مني وتدير آلتها القاطعة الصغيرة .. الاعياء باد على شيخوختها التي لم يرحمها العمل . تشبه أمي ، لا ريب في انها أم لشاب أو لفتاة ما ، كيف يتركانها تعمل هكذا ؟... ربما كانت أم سوزان ، وسوزان كما قالت لا تتصل بأهلها ربما خلال شهر أو أكثر .. لو سقطت الآن ميتة لحملوهـا إلى المسلخ ريثما يسأل عنها شخص ما .. أشياء كثيرة أمقتها هنا كما أمقت أشياء كثيرة هناك .. **(اني على الجسر بين عالمين .. والجسر يغمره الضباب ، يا سوسن حينما كنت تتحدثين بهذا الأسلوب كنت أعجب بك أنقم على إعجابي بك .. ربما كنت مثل أبي ، لكن مأساتي هي انني أدري ، أما هو فلم يكن يدري) ..**

عينان واسعتان لجارتي في المقعد أحس نظراتهما تخترق جانب وجهي .

التفت اليها باعتداد عربي يعرف انه الاسمر الوحيد في الباص ، وربما في الحي كله .. تشبه القطة بشعرها الناعم الطويل المنسدل على جزء كبير من وجهها ..

عيناها زرقاوان فيهما تحد متعب منعش .. أدرت وجهي عنها إلى النافذة ، ثم وجدتني أتأملها طويلاً من جديد .. ربما

كان شيء آخر جعلني أعود بنظراتي إلى وجهها ، فالنساء جميعاً هنا يشبهن القطط .. ربما كانت تلك الزرقة الخفيفة التي تسري تحت بشرة وجهها المشوهة بآثار جدري قديم .. ربما كانت بشاعة التشويه ، ربما لأنها تشبه امرأة رأيتها ممددة في المسلخ قالوا ان التيار صعقها ..

ووجدتني اسأل ثيابها عن هويتها .. ليست طالبة على أية حال ، وفي ذوقها كثير من الرخص ، لكن عينيها الزرقاوين مريحتان بتحديهما الجشع ، ونهمهما المرهق إلى الامتصاص . تشدانني .. أحسني بقعة من حبر لم يحلها قلم إلى سطور مفهومة ، ليتني أنتهي بطريقة ما ، يمتصني أي شيء ، أية ورقة نشاف ، وفي عينيها الزرقاوين شره أوراق النشاف إلى امتصاص بحر بأكمله ..

(سوسن .. بصدق أحببتك ولكنني أيضاً كنت أخشاك .. كنت أشعر انك قادرة على امتصاصي بطريقة ما ، على تدمير السيادة التي يمارسها أبي على أمي .. الآن أدرك كم هو مريح أن تمتصي غربتي وأحزاني وأحس معك راحة اللقاء الصحي ، لا استرخاء التخدير .. التخدير) ..

التخدير .. والمرأة إلى جانبي تقترب مني ، الباص يقف فجأة وهي تنتهز الفرصة لتتمسك بيدي . اتركها لها بقايا يد رجل ..

(وكانت يدك غارقة في يدي في الظلمة .. كانت حارة ومرتعدة لها جرأة غانية وخفقان عذراء وارتعاشها ..

— سوسن .. ماذا بك ...

وظلت يدك تتمسك بأصابعي بقسوة ، بحنان لا حد لمرارته .. همست : أتساءل عن الليالي التي ستكون فيها هذه اليد لأخرى. وأتساءل هل يمكن أن أجد يدي ربما بعد أعوام في يد رجل

آخر ونحن جالسان هذه الجلسة نفسها ؟.. وأنا أحمل له الصدق نفسه الذي أحمله لك الآن ؟.. ان ذلك لا يطاق ، هذه الحرب بين صدقنا والزمن غير متكافئة) .. يا أكرم ، أين أنت .. إني متعب ، ربما لأنني لم آكل منذ زمن طويل .. عيناها الزرقاوان ما زالتا تتحديانني . ماذا أملك لها ، (قال اكرم ربما حفنة من نقود) وماذا تملك لي سوى حفنة من دقائق التخدير ؟.. يدي ما زالت في يدها ، أحسها تبرد فجأة تتحول إلى يد لزجة ميتة . انتشل يدي يتوقف الباص . دون أن أعرف أين أنا أنهض وأهبط . أسير . التفت . انها ورائي . إذن فهي واحدة منهن . الضباب ملايين من اشارات الاستفهام والتعجب . على أية منضدة في المسلخ تراك يا أكرم ؟.. اني بحاجة إلى صدر أدفن رأسي المتعب في حنانه (يا سوسن .. كم ظلمت صدرك لما شددتني لأدفن رأسي فيه بينما كنت أعاني المتاعب التي قذفت بي إلى هنا .. انتزعته بعنف وسألتك بقسوة أبي وهو يطلب من أمي تحضير نارجيلته : ماذا تصنعين ؟.. هل أنا طفل ؟.. ببراءة همست : يخيّل إليّ ان لحظة الحبّ الكبيرة هي حينما تأوي إلى صدري ويغمرك إحساس عميق بطمأنينة طفل) ... إلى جانبي تسير . لم أعد قادراً على رؤية آثار الجدري في وجهها ، الشارع شبه مظلم ، وخاو ، والبرد لا يطاق ، وهي تبدو ظل أنثى شهية بشعرها الطويل ، وقامتها الرشيقة النحيلة .. (همس اكرم قبل أن يلتقط غانية من المقهى : جرعة مخدرة رائعة) .. باستسلام انقاد لها ... اني متعب وضائع والاشياء كلها قد استوت لدي .. يا دمشق .. أين لياليك

والتسكع في شوارعك ؟.. أين النبـع الـذي لم يتسخ ؟؟..
(وكان الليل زنبقة سوداء على كتف بردى ، وقد خرجنا للتو من مطعم أبو عدنان وسرنا حتى قهوة بن عازار .. التقينا بكمال جالساً عند بائع الصبار فانضم الينا .. سرنا نتفقد شرفات حبيباتنا النائمات .. نستسلم لخطانا التائهة .. ومن كل حجر رصيف من كل بناء من كل ذرة ريح في دمشق يفيض شيء محبب مشحون بالاصالة والحنان) ... المدينة هنا أحس ان فيها شيئاً يركلني ، وربما يركل أهلها جميعاً حتى يقفزوا من مكان إلى آخر والقسوة على وجوههم والخشونة في احتكاكاتهم .. يا دمشق .. أي سرّ فيك يشدّني إلى أضيق زقاق في الشاغور ، أي كنز في قاسيونك يسمر أعيننا على العودة أينما كنا ، أي نبع أصالة نأمل في أن نفجر . تدور بي الشقراء في أحياء لا أعرفها .. نتنقل من زقاق إلى آخر .. وقع خطواتنا كئيب ومتهالك ..

أسير وأنا منقاد لها .. أحس آلافاً من حجب الضباب تسقط على صورة دمشق في خاطري ، أحسها تبحر في نفسي إلى ابعاد نائية سحيقة .. فلأنتمِ إلى هذا العالم الذي تهاجم أمواجـه شطـآني بقسوة اسنان التمساح .. فلأحاول على الأقل .. اقترب من المرأة وأقبضُ على ذراعها بشدة وقد سارعت في خطاي .. لا أرى الدهشة التي تبدت في عينيها فجأة ولكنني أعرف انهـا هناك .. بيدي الثانية أتحسس ذقني التي لم أحلقها منذ أيام عشرة. إذن فهي بحاجة إلى حفنة نقود ، ومهما كان غروري لن أتوقع من أية امرأة أن تسقط صريعة هواي منذ النظرة الأولى وأنا اشبه روبنسن كروزو .

أحد المخازن ما زال مضاء . تهمس بشبه استعطاف : دعنا

نحمل معنا شيئاً من الطعام والخمرة .. إذن فهي تريد الثمن مقدماً .. فليكن ، انها مخدر لا بأس به في الظلمة ، وسأهرب قبل أن يطلع الفجر وأرى بقايا المائدة .. في المخزن قلت لها اختاري ما تشائين .. دارت على الرفوف .. والبرادات .. حملت معها خبزاً وخمرة وسمكة كبيرة .. (كانت السمكة تتصدر المنضدة ، شهية وحارة .. وسوسن إلى جانبي ، شهية وحارة أيضاً .. بعد دقائق لم يبق من السمكة سوى هيكل عظمي عار وفاحت منها رائحة زنخة مزعجة .. لوت سوسن بوجهها بحثاً عن الخادم ليلملم بقايا الوليمة ، وأخذت تحدّق في بردى الذي كان ينساب بهدوء في تلك البقعة الجميلة من « العين الخضراء » .. همست بحزن فجأة : أكره أن أرى النهايات ، أن أرى بقايا الأشياء الجميلة نشوهها كي نتلذذ بها ثم لا نملك إلا أن نتقزز منها ..

– ماذا تقصدين ...

– لن أكون لك أبداً إلا إذا تأكدت من انك تحبني .. لا أريد أن أجد نفسي ذات يوم ممددة على اريكتك زنخة ولزجة كهذه السمكة .. شيء واحد يجعلني أبداً شهية في طبقك، أبداً متجددة وعطرة .. الحب ..)

الحب يا سوسن ... لذا سأهرب الليلة قبل أن يطلع الفجر وأرى آثار ما كان .

الحب يا سوسن ... ثرت عليك يومئذ لأنك تعرفين .. خبرتك التي أحبها أغار منها .. واليوم والبارحة وكل بارحة في هذه المدينة وأنا صائد أسماك نهم لا يشبع .. لقد كانت سوزان على حق اني متناقض ...

أمام بناء متهدل كخدي مومس في الخمسين نتوقف . تقودني في درج ضيق تكاد درجاته تسقط ، جدرانه متهالكة تذكرني بالبيوت التي كنت أبنيها مع اكرم بورق اللعب .. الحق بها .. أريد جرعة مخدرة ، تعيدني حيواناً في الغاب ، لا يبالي بمنابت الشمس أو كنوز قاسيون أو نبع دمشق أو عيني سوسن العاتبتين أبداً .. إني متعب ، كأنني أحفر في صدري للأساس الذي أود أن أبني مدينتي وفقاً له من جديد .. **(صرخ أكرم صبيحة يوم اختفائه : سأغادر هذا العذاب كله إلى جزيرة آكلي اللوتس ، سأسبح في بحر حار من الخمرة ، التصق بالجزر المرجانية وكحيوان بحري كسول سأستسلم لدغدغة التيارات العميقة) ..**

أمام باب غرفة في الاعلى نتوقف برهة ، ريثما تفتحه . أتأمل ساقيها .. انهما جميلتان مشدودتان .. لاريب في أنها تكسب جيداً من (عملها) هذا ، وهي بهذا الشباب . لا أستطيع أن أفهم لماذا تقطن مكاناً فقيراً حقيراً كهذا .. (أين أنت يا أكرم ؟.. في مكان حقير كهذا .. ربما في غرفة مجاورة .. وربما سأجدك في الداخل !)

تفتح قفل الباب وتتقدمني . بسرعة ألحق بها . تغلق الباب بهدوء وببطء دون أن تشعل النور . تتحرك في مكان ما من الغرفة واسمع وقع حملها على خشب منضدة ما .. تفوح من جو الغرفة رائحة كريهة . حلقي جاف . صوت كلب يعوي باسلوب انساني مبحوح .. ارتجف . حفنة المخدر هذه لا أعرف اسمها كي أناديها . حلقي جاف . **(هل شربت قهوتك يا حسان ؟.. إنها من صنع يدي ...**

بكل ما لدي من سخرية أجبتك : هل تحاولين إقنـاعي يا سوسن بأنك زوجة ماهرة ؟..

وأرشف القهوة ، ألذ ما فيها قطرات « ماء الزهر » المعطر ، وأتلذذ بها بينما أنا أسخر منك .. وتظلين تتأملين وجهي بعينين عاشقتين دامعتين ، راضيتين ، لأنهما تعرفـان انني أتلذذ بقهوتي !) ..

حلقي جاف . أين اختفت حفنة المخدر هذه . أنفاس إلى جانبي . ها هي يدها تمس ذراعي . تشدني في عتمة الغرفة . جو المكان يثير هلعي ، كأنني في المسلخ هناك بين الجثث وقد انطفأت الأنوار . صوت تنفس مرتفع . ربما كان صوتي . أستسلم لها . بدأت عيناي تألفان الظلمة . تجلس إلى حافة شيء ما أتبين في الظلمة بصعوبة انه سرير .. أترك نفسي أسقط إلى جانبها ..

بخيبتي ، بقرفي ، بسأمي ، بارتعاش مدمن طال عليه الأمد ولم يتناول جرعته . اضمها إلى صدري .. أحسها صلبة ومتصلبة وباردة .. (لما ضممتك أول مرة إلى صدري لم أجرؤ على أن أقبّلك .. أحسستك حـارة ، تنتفضين كعصفور أصيب للتو بطلقة مميتة ، بصعوبة كنت تتنفسين ، خشيت أن أخنقك لو قبّلتك ، أن أصهرك ، ان افتتك وأنت طرية هكذا ، هشة وصادقة . يا سوسن ، أين حنانك) . كذباب جائع اهوم بشفتي بحثاً عن منابع النسيان .. تستسلم لي ببرودة عجيبة ، تتحسس ظهري بمهارة ممثل أتقن دوره حتى صار يمارسه ببلادة ورتابة .. شفتاها باردتان ، فيها تشنج جثة .. (أنا في المسلخ على منضدة حجرية ، يرمون فوقي بقايا الهياكل العظمية لأسماك نتنة .. يضربونني بها على وجهي على رأسي .. أحاول أن أنهض .. لا أستطيع .. أكوامها فوقي .. أحـاول

أن أقاوم لكنها ثقيلة فوق صدري ، رائحتها تخنقني) ...
مازلت أقبلها وصقيع ازرق كالسم ينمو بين شفاهنا ، عبثاً أوقد النار **(أركض متلاشياً حائراً على جسر بدأ يغرق في الضباب .. إني بحاجة إلى مخدر) ..**

مهارتها في عناقي تثير تقززي .. تذكرني بأنامل سوزان المدربة التي ما أكاد انتشي بحذقها حتى أثور لذلك .. تدفن وجهها في عنقي وقد بدأ شيء يشبه الدفء يفوح من التصاقها .. **(سوسن ، لماذا لا تكفّ صورتكِ عن الانتحاب ؟.. إني أسمعكِ هناك .. في غرفتي .. دعيني اتخدر) ..** الرغبة في تحطيم شيء ما ، في استنفاد شيء ما تغمرني .. السمك العفن ما زال يمطرني ، أفقد القدرة على الشم وعلى التفكير ، أريد أن التصق بشيء ما ، بأي شيء ... إني وحيد وبائس .. **(اسوارك يا دمشق تعلو ، سوسن تلوح من خلف الاحجار الشفافة ، أنا ابتسم للمسلخ ، أنهض إلى المنضدة الحجرية المجاورة حيث جثة المرأة التي صعقها الكهرباء ، التصق بها .. سيولد طفلنا ميتاً !) ..** أسقط في بحر لزج ، أستسلم لتيارات الاعماق بنشوة حيوان كسول .. كل شيء يغرق في الضباب ، والجسر يغمره الضباب ، وأنا لا أدري أين أنا ، لا أدري ما الانا ، لا شيء سوى نهم مخدر ذليل .. لا شيء سوى سقوط مخدر ارحل معه بعيداً إلى مدن قديمة ابتلعها البحر واستقرت في القاع ... أتجول بين الابواب الصدئة والكنائس الهرمة بمرونة صفصافة تتمايل مع الريح .. لا شيء سوى نعاس آكلي اللوتس ..

فجأة ، يخيل إليّ اني أسمع صوتاً ما .. تتوتر عضلاتي . تستيقظ غريزة الفهد .. أرهف سمعي ، أفتح عيني وأحدق

حولي .. الحركة تزداد وضوحاً .. إذن لم أكن واهماً .. للمرة الأولى يخطر لي أن أتساءل : أين أنا ؟.. ماذا أصنع في هـذه الظلمة ؟.. صوت متقطع يشبه الانفاس اللاهثة .. صوت يشبه أنين انسان مكمم .. يداها ما زالتا في رحلتهما الخبيرة فوق كتفي وظهري .. أظل جامداً .. تراها لم تسمع ما سمعت .. أهمس في أذنها : اسمعي .. من هنا ؟..

بصوت لا أثر للعاطفة فيه تجيب : لا أحد .. لا دخل لك بذلك .. هيا ، استمر !...

ويموت كل شيء ، حتى الرغبة في التخدير ، حتى الرغبة في الهرب .. أجدني أنصت بحذر مرهف .. لا شك في انـه صوت تنفس انسان .. أنفاس ثقيلة متلاحقة فيها انتحاب أخرس مكتوب .. بصوت لم أقو على خفضـه أهتف : اشـعلي النور ...

تفح : اصمت !!...

بصوت اظنه يشبه الصراخ اعيد : اشعلي النور ...

تفح : اصمت !!..

وينبعث بكاء طفل . تتوقف المسرحية فجأة . تسترخـي يداها . تتريث . بكاء الطفل يعلو . ينضم اليه بكاء طفل آخر تنهض من الفراش . ربما كانت تتحسس زر النور . النور يغمر المكان فجأة . أتلفت حولي وأنا أمسح بقايا زبد برد فجأة على شفتي . أقفز جالساً وأكاد لا أصدق ما أرى . رجل في الفراش المجلور . أتوقع أن ينهض ، أن يثور ، أن يقول شيئاً . لا يتحرك ، لولا عيناه المثبتتان على وجهي بشراسة وحقد لظننته ميتاً .. انهض عن الفراش والملم أشيائي . يظل يحـدّق

بعينين باردتين تشوب بياضهما زرقة مرعبة الاحمرار .. أتقدم من الباب لأهرب ، رغم ذلك لا يتحرك . لا ينطق . ربما كان زوجها .. أحاول أن أزيح نظراتي عن وجهه لابحث عنها ، لكن شيئاً رهيباً في الوجه الجامد يشدني إلى أن أظل أتعذب بتأمله .. فيه مرارة جيل من الرجولة ، شللها وبشاعة انحدارها ...

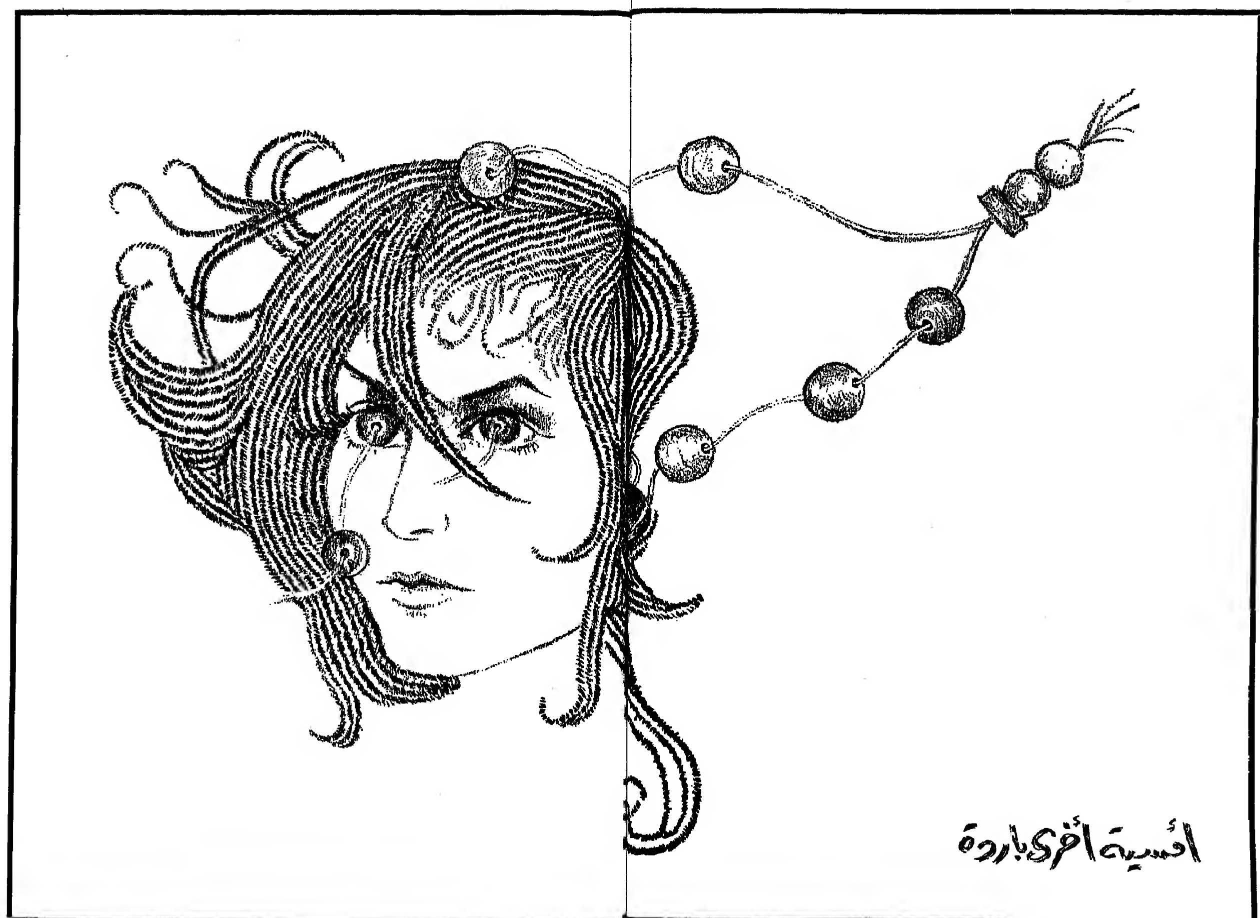
صراخ الطفل بدأ يهدأ . انها في الركن تهدهده . الطفل الآخر يسعل سعالاً خشناً مجرحاً يذكر بجروح سجين عذب ثم سكب عليه ماء مالح . على منضدة حقيرة بقايا خبز مفتت .. هذا كله أراه في مثل ومضة برق ، ثم تعود نظراتي إلى أسر النظرات الزرق للرجل الجثة .. لعلها تلحظ هلعي إذ تهمس بلامبالاة عجيبة . . باللامبالاة نفسها التي كانت تضمني بها : لا تخش شيئاً .. انه زوجي .. ومشلول !.. أسف الرجل لمنظر رجولة مهانة يمزقني ، وهو ، ما يزال جامداً ، ما يزال يتنفس بما يشبه الانين ، ما تزال نظراته تنفث حقداً كالطاعون ، كنظرة المحتضر الاخيرة التي يرمي بها قاتله

(كنت أسعل والمرض يأكلني بنيرانه : سوسن .. إذا سقطت صريع المرض ، ماذا تفعلين ؟..

بصمتك اللذي أعرف عمق قرارته ، بعينيك الصريحتين العاشقتين واجهتني . بدون أية كلمة .. بعدها بدقائق همست بصعوبة : ماذا تتوقع مني أن أفعل ؟...

بقسوة أجبتك : انتحري .. اقتلي نفسك .. لم تقولي شيئاً .. وكان في عينيك تصميم أعرف معناه .. كنت أعرف ان ما أقوله ساخراً متحدياً يمثل في وجودك واقعاً لا شك فيه .. وانك كبعض

نساء الشرق الأقصى ، قد تحرقين نفسك حية مع جثة زوجك) ...
عادت تفح : لا تخش شيئاً .. قلت لك انه مشلول !. اخرجت ثديها وبدأت ترضع طفلها وتهدهده ! ... أنا في المسلخ ، وحيد وبائس والضباب ينبع من أسفل الموائد الحجرية كبخار سام يعمي الاعين ، وأنا أدور من منضدة إلى أخرى ، وأنا أهرول بين الجثث ، أمد يدي اليها ، أدير وجوهها نحوي وأنا أصرخ : اكرم . فلا أجد إلا وجهي !! هذه جثة أخرى . هذا أنا مشوه ، جثة ثالثة ، هذا أنا والجدري يكسو بشرتي ، جثة رابعة ، هذا وجهي ولي جسد سمكة منهوشة عفنة .. وأظل أعدو وأعدو . الضباب السام يخنقني ، أريد أن أهرب .
(همس اكرم وزوجة جارنا تتعرى في ركن غرفتنا المشتركة ، وأنا مذهول ، لا أزيح نظراتي عن شريط الاذان الذي حملني والدي إياه : النبع هنا مسمم من أساسه ، معدتي الدمشقية ترفضه ، لكنه مدهش كمخدر) ...
يقظة مريعة تغمرني أنا وحيد في ساحة معركة انتهت منذ دقائق ، ولم يبق حولي إلا القتلى ورائحة الدم والهشيم ..
(لن افكر بك يا سوسن ، أغار عليك من أن أدنسك) ...
أريد أن أهرب من لا مكان وإلى لا مكان ، أركض ممزقاً على الجسر الممدود فوق نهر الضباب الغارق في فضاء الضباب ... أركض على الدرج العتيق ، أركض في احياء ملتوية ، أركض . أتعثر . الضباب يغمر كل شيء .. يغمر أسوار دمشق ، يغمر صدى انتحاب سوسن ، يغمر أكرم الضائع في مسلخ ما ...
إذا أمطرت ، سوف أبكي .


أمسية أخرى باردة

أمسية أخرى باردة ..

ربما انقضت ساعات ، وربما دقائق ، وأنا أحوم هكذا بسيارتي .

شوارع . وجوه . أضواء . نباح . أبواق سيارات ، والريح ، ووجهه مسافر في غيمة ، ثم داره .

لا أدري لماذا أجد نفسي دوماً أحوم حولها ، رغم أنني لا أشعر بأية رغبة في الدخول اليها ...

وداره كانت بركة نور على جلد المدينة الجاف ، تعريني من شرنقة منفاي ، وموجات صوته تروح وتجيء على كياني ... وأهذي ونهذي معاً ..

(– صغيرتي ، ما اسمك الحقيقي ؟..

– كان فاطمة ، وصار في هذه المدينة « تيما » .

– ومدينتك ؟..

– مدينة منهن ، عربية ، من الضائعات عن أي يقين ..

– أليس لك يقينك ؟

– لم أعد أدري ، الاحداث المتعاقبة مزقت اسرتي وأساطيري ،

ولم أجد أي بديل ...

– .. انك تحبين البديل ، الملجأ ، اليقين الذي أمثله لك .. أخشى من أن أقول انك لا تحبينني أنا ... أنا على حقيقتي ...

– وما أنت ؟ هل لديك حقيقة أخرى ...

– أجل .. أنا مثلك .. انسان متعب وممزق ، طيب وشرير ، قوي وضعيف ، وفيّ وخائن كالبشر جميعاً .. انك تظلمينني بتأليهك لي .. تعذبينني بطقوسك وعبادتك . أخشى علينا من جوعك ليقين كبير ..

– لماذا ؟

– فما أنا سوى « ابن اخت الست ملاحت » ثرية المدينة المشهورة ..

– ومدينتك ؟

– بيارة برتقال دفن أبي وأمي تحت أنقاضها ، وتصادف اني كنت غائباً ، أزور خالتي في هذه المدينة ، فنجوت ، وبقيت عندها) .

أمسية أخرى باردة ..

وأنا قد عدت وحيدة . لم أعد أذكر بالضبط كيف ولماذا افترقنا . لم أعد أذكر فيما إذا كنت قد حزنت على فراقه أم لا ..

كل ما أعرفه ، انه كان لا مفر من أن نفترق ، وان شيئاً في داخلي قد انكسر بلا صوت ، وانني ابحر فيما وراء اصقاع الحزن أو الأمل .. وان الاشياء في العالم الخارجي عادت تبدو غريبة ومرعبة ، وانني زائغة ، زائغة ، قطرة زئبق على مقاهي الارصفة ..

قطرة زئبق في الشوارع المنفية بالبرد والظلام والغربة .

(كنت (أزوغ) تلك الليلة ، كعادتي لا أدري كيف التقاني . لاحظت ان سيارة تتبعني . أبطأت . لما تجاوزني ميزته فتوقفت مذعنة لاشارة يده . لم يكن أسبوع قد انقضى منذ قدمته لي « خالته ملاحت » ، صديقتي الكبيرة .. هبط من سيارته وتقدم مني شبه ثائر : إلى أين يا تيما ؟

— إلى لا مكان ؟ ماذا بك يا فادي ؟..

— لماذا غادرت البيت ؟

— لأني خائفة .

— ممَّ تخافين ؟

— أخاف الجدران ، والصمت ، والظلمة ، والبرد !

— ماذا تقول تلميذاتك لو سمعنك ؟ وماذا يقول موظفو مؤسستك ؟

— لا يهمني ذلك اطلاقاً ...

— شاهدك الرفاق في المقهى تدورين بسيارتك ، علقوا ساخرين انك تبحثين عن رجل !

— هذا كل ما يمكن أن يخطر لهم .. انهم يشخصون أمراض الغير من خلال أمراضهم ...

— ان ذلك يسيء إلى سمعتك !

— وما علاقة سمعتي بحقيقتي !

— تيما ..

— على أية حال ، في المرة الثانية سأذهب إلى خالتك ملاحت وأسهر وإياها حتى ينهكني التعب ، وأنام حينما أعود دون ان أبدل ثيابي .

ـ لا .. لا تذهبي أبداً إلى خالتي ملاحت .. لا تذهبي إلى هناك وحدك ! تستطيعين زيارتها حين أكون في الدار . ارجوك يا تيما ...

ـ ولكن ، فادي ، لماذا ؟

بصوت حازم انهى فادي الحديث : لا تسألي . على اية حال لن أتركك وحيدة بعد اليوم .

وهو يعود إلى سيارته همس بحرارة : هيا اذهبي إلى بيتك وحدثيني هاتفياً ...)

أمسية أخرى باردة .

افتح باب بيتي . تفاجئني أضواء الشارع ممزقة ومرمية على البلاط المعتم البارد .. والغرف تطل من أفواه الابواب المفغورة مظلمة ساكنة .

أخاف البيوت الفارغة المعتمة ـ نسيت أن أترك النور مضاء قبل خروجي ـ لأنني حينما أعود وأفتح بابي ، أحس ان هنالك من ينتظرني في الداخل ..

دارنا هناك كانت تفور بالحياة والحركة ، حتى كانت تلك الليلة ، وبدأ أهلها يتناقصون ويضيعون واحداً بعد الآخر ...

(لما سمعنا المدافع تلك الليلة الربيعية العتيقة ، رمى أبي بنارجيلته جانباً ، والتفت إلى أمي : غريب . ثبتوا العيد قبل موعده بيومين . سأذهب إلى الجامع للصلاة .

ثم خاطبني « فاطمة » وبدأ يعبث بحبات مسبحته السوداء بعصبية ، تجاهلته وظللت غارقة في كتابي أقرأ . لم أكن أحبه، ولم أكن أكرهه . كنت أحسده . كان يبدو قوياً ، هادئاً

دوماً ، مطمئناً وسعيداً . وكنت أتمنى أن أعرف سر هـذا كله ..

كنت أنبش في غرفة مكتبة اخوتي الثلاثة ، لعلي أجد ذاك السر في كتبهم ..

عاد أبي يناديني : فاطمة .. اتركي هذا الكتاب اللعين يا فاطمة ..

ــ اسم مؤلفه « كامو » يا بابا ، لا « لعين » ...

تجاهل جوابي مستمراً : وتوضأي ، واقرأي صفحات من القرآن ، فالله الذي اكتشفناه في هذا الشرق ، لا بديل له في فلسفات الغرب كلها .

وتمنيت أن يلحظ نظرة السخرية في عيني كي يثور ، فأحدثه مباهية عن نجاح اخوتي الثلاثة في حياتهم السياسية والعسكرية ، وعن أحزابهم المختلفة ، التي بثقافتها ووعيها سوف تمنح الحياة الكريمة للجميع ..

ظل متجاهلاً إياي واستمر : لست ضد الثقافة ، ولكنني لا أريد لكم ثقافة تقطع جذوركم مع ماضيكم ، فتسودكم بدلاً من أن تهضموها أنتم ، وتستخدموها خلال جذور اصالتكم .

لم أجب فقد تلاحقت الضربات . قال انه سوف يخرج إلى الجامع ليتحقق مما يدور . لم يسمعني وأنا أصرخ : لا تذهب . اشك في ان شيئاً غير عادي قد حدث .

وبعد أن اختفى مع مسبحته ، انقضت علي أمي بجثتها المترهلة ، لتعيد علي للمرة الألف الحكاية نفسها التي تهوى تكرارها : عشرة أعوام بعد زواجي من والدك ولم احمل ...

وفي كل يوم كان يذهب أبوك للجامع ويرفع نذراً لاحـــد الاولياء . كل يوم ينذر في الجامع ، وكل يوم خطبية جديدة يوشحونها له ، حتى حدثت المعجزة وحملت ، ورزقنا الله بأخيك « مندور » أولاً ثم ..

ثم ..

تلاحقت الطلقات ولم أعد أسمع شيئاً . ولم يعد هنالك أي شك انها ليست مدافع العيد ، وانهم ربما اغتالوا العيد نهائياً . ولم أعد أسمع شيئاً سوى ذلك الرعد الارعن ، ينتشر على صفحة السماء بحيرات من وهج ..

لا أدري لماذا صرخت ، وأنا أحس للمرة الأولى في حياتي ان اخدوداً من الصوان الناري ينفتح في أحشائي : بابا ..

لا أذكر كم من الوقت انقضى ريثما انفتح الباب ، ورموا بجثة أبي ، ويده ما تزال تقبض على حبات المسبحة السوداء ..

واقتربت من خيط الدماء الذي كان يسيل من فمه . أحسست بغيرة لا حد لها من تلك الابتسامة العجيبة على شفتيه . كانت تحمل كل ما أبحث عنه داخل الكتب ، ولا أعرف له تحديداً : شيء كان يسميه أبي « الايمان » ..

ورأيت لحى شيوخ الحي تتطاير حولي مع الكلمـــات : « مندور » هو الذي قتله .. وعلى باب المزار .. حصـدهم حصداً بما فيهم أبوه .. يا له من زمن ملعون ... وهذا الجيل الملعون ...

ولكنني لم أفهم ، ولا أدري لماذا أخفيت مسبحته السوداء في صدري ..

وظللت عاجزة عن الفهم ، حتى حينما سمعت صوت أخي

يصرخ في المذياع مبشراً بزمن جديد مبارك .
وظللت عاجزة عن الفهم حتى حينما تعاقبت الاعياد والايام .
وكان الباب المجنون ينفتح في بيتنا المرة تلو الأخرى لنستقبل اخوتي المثقفين المتصارعين جثة إثر أخرى بعد أن اقتتلوا طيلة شهور ..
كنت عاجزة عن الفهم ، لأن كلاً منهم طالما حدثني عن الاشياء نفسها التي حدثني عنها الآخر . كلهم يقول : الشعب ، العقيدة ، العمل ..
لماذا إذن يقتتلون ؟ لماذا يحدث ذلك في كل مكان ؟!.
ولا أدري لماذا حملت معي (مسبحة) أبي السوداء يوم غادرت مدينتي كما يفعل الآلاف العرب في مختلف مدنهم رغم انني عجزت عن فهم لماذا كان عليه ان يموت على عتبة المزار التي طالما تخطاها مصلياً لمندور .)
أمسية أخرى باردة ..
والوجوه ذكريات وجوه والاحاديث أصداء أحاديث . الوجوه فقاعات .. فقاعات .. كبالونات ذلك البائع الغريب الذي يرابط تحت نافذتي منذ ذلك اليوم ..
(عدت ذلك الصباح فرحة . إذ وجدت الجرأة على إعلان انسحابي من منظمتنا ..
وكان رئيسي في المنظمة ، وله وجه فأر أحرقته الشمس ، يرميني بنظرات تهديد شرسة ، ولكنني استطعت أن أتابع : لا أدري بالضبط لماذا اريد أن أتوقف عن هذا كله ..
صرخ بصوت حماسي ذكرني بلهجتي وأنا أحدث الطلاب في الصف عن اختراع أول منطاد : والشعب ؟ والثـأر ؟..

ما الذي بدل قناعاتك هكذا فجأة ؟ ودم أخيك الاوسط ؟..

وانفجرت أضحك . اضحك . من قال له انها قضية دم أي من اخوتي الثلاثة ؟ لقد قتل بعضهم بعضاً . إن كانت حكاية دم ، فعلي أن أوزع نفسي في ثلاث منظمات بل أربع ، من أجل دم أبي !..

وصرخت في وجهي عانس ما زالت آثار الضرب على وجهها رغم اطلاق سراحها : كان ايمانك مزيفاً !

— ربما . ربما كنت معكم لمجرد انه لم يتصادف انني كنت في مكان آخر . ولم أقل : والآن صار لي مكان آخر ..

واغمضت عيني برهة كي لا يروا صورة « فادي » في عيني ..

وخجلت ، واحتقرت جزءاً كبيراً من ذاتي ، لأن المبادئ التي كنت أدعي لنفسي الايمان بها ، آمنت بها لأنني أنا بحاجة إلى الايمان ، لا لذاتها . وها قد رضيت بأول بديل .. بـ « فادي » .

ونسيت فرحتي الصغيرة أمام البيت ، وأنا أرقب بائع البالونات يتحرك بسرعة على الرصيف المقابل لداري ، وعلى رأس أنبوب صغير يضع قليلاً من معجون خاص ، فتتطاير البالونات في الجو .

بالونات شفافة لماعة ، مختلفة الحجوم ، تتطاير بين الرؤوس والاجساد المسرعة فتنفقئ ، ويعلو بعضها فوق الرؤوس ولكنه لا يلبث ان ينفقئ أيضاً ..

مجموعة اثر أخرى من البالونات ، تتطاير ، ثم تنطفىء

ولا تخلف حتى أثر رماد .. فورة بعد أخرى ، جيل بالونات بعد آخر .

لا أدري لماذا تسمّرت أرقب البالونات الفقاعات ، وداخلها كنت أرى وجوهاً ووجوهاً عايشتها وعرفتها ، ووجوهاً لم أعرفها ، تتناثر على الرصيف ، تعلو ، تصرخ بشعاراتها ، ثم نفخة أخرى من فم بائع البالونات ، وتطير كلها نحوي ، ثم تنفقيء كلها بصمت قبل أن تمس وجهي أو تترك بصماتها على صفحة عيني .

ولم أعد فرحة لأنني تركت المنظمة ولا حزينة ، ولم أعـد فرحة لأنني سألقى فادي ...

غمرني جوع مؤلم .

جوع إلى شيء كبير كبير ، يستطيع أن يعلو في الجو دون أن ينطفيء أو يسقط ، وإذا كان عليه أن ينطفيء ، فعلى الأقل خارج مرمى بصري !)

أمسية أخرى باردة ..

لست جائعة ، ولا أعرف شيئاً اسمه وقت الطعام . وقت الطعام عندي هو لحظة جوعي ، وقد ينقضي يومان قبل أن يحل. ذلك المنبه الاجتماعي لا أدري لماذا تعطل في داخلي .

لكنني أترك طعاماً يطهى على النار دائماً ، لا لآكلـه ، ولكن لاشم رائحته . أحب أن تفوح في داري رائحة الطعام دائماً ، وأعرف ان ذلك يفقد الدار شاعريتها ، ولكنه يميزها عن مكتبي . قرب رف الكتب الكبير اغرس شريط (السخانة) وأترك عليها وعاء طعام .

أبخرة الاكل تنتشر على الجدران . تغلف الكتب . تتسرب إلى

ثيابي الانيقة المعلقة في الخزائن المفتوحة .

الآن ، ورائحة الدار هكذا ، أستطيع أن أغمض عيني في فراشي وأتخيل ان أسرة كبيرة – تخصني – تتحرك الآن خارج غرفتي وتتسامر حول المائدة .

من المفروض أن أكون جائعة . يوماً بعد يوم أفقد القدرة على الانسجام مع صفوف الناس في حركاتهم المتآلفة .

يوماً بعد يوم ، أشعر بأن الاشياء التي أدرسها مضحكة وسخيفة ، وأخشى من أن أصرخ في طالباتي : لا تصدقن شيئاً مما أقول . كله كذب وخداع .

يوماً بعد يوم تتفكك حلقات السلسلة التي تشدني اليهم ، أحسني انفرط عنهم كتلك الحبة السوداء الشاردة من مسبحة أبي يوم قطعها فادي بلا مبرر وكاد يجن لمرآها ..

(في الملعب كان صراخهم يغطي وجه السماء ، وفي البداية أحببته .

أحسست الهتاف الجماعي غناء قبيلة طيبة وقوية تنادي إلهها كي يضيء برهة على أكتاف الجبل لتستعيد ايمانها به وطمأنينتها ..

رؤوس رؤوس مرصوفة متلاصقة .. وفي قاع البئر المكسوة بالرؤوس البشرية افراد فريقي كرة القدم ، يركضون ويتعثرون ، ويطاردون والصراخ يعلو ويهبط ..

كنت دوماً هكذا منفرطة عن المجموعة ، ولكنني لم أكن أكرهها بعد ، بل أرقب طقوس حبها وحماسها وكرهها بحنان صادق ..

ثم لا أدري لماذا وجدتني أرقب ملامح « الست ملاحت »

الجالسة إلى جانبي ، والتي كانت ترقب بهدوء وصمت كل ما يدور وأتساءل : لماذا تحب أن أرافقها دوماً هكذا ؟.. ماذا يشدها إلي ؟..

ربما كنت أنبش ملامحها بحثاً عن شبه دفين بينها وبين فادي. ثم وجدتني أنبش زجاج نظارتها السوداء بحثاً عن ذلك البريق الشيطاني الغامض الذي يشع من عينيها أحياناً محرقاً عجيباً ..

أحياناً ، تنظر إلي بطريقة تسكب في كياني سائلاً نارياً مخيفاً مخدراً يستحيل فجأة — وقد قست ملامحها — كاوياً وآكلاً كماء الفضة ..

التفتت إلي وواجهتني بذلك الوجه النمري العجيب .. أحسست بحرج لا أعرف له سبباً ..

وبحثت في حقيبتي عن سلسلة مفاتيحي أتشاغل بها ، فاصطدمت يدي بالمسبحة التي كانت كل ما تبقى من أبي .. أخرجتها وبدأت أعدو على حباتها ، أسقط ، أتمسك بها ، أنزلق فوقها ، أتمسك بها .. لن أسقط .. قالت : وأنت أيضاً ؟.. وأنت أيضاً من جامعات المسابح !

وظلت تتأمل المسبحة وقد اشتعل وجهها النمري بالدم ..

سألتها : ماذا ، ماذا تعنين ؟.. ابتسمت بغموض ، وشدت على يدي بطريقة ظننت معها ان يد شاب تسللت إلى ذراعي ، وتلفت بحثاً عنه ، ولكن اليد كانت تخرج من دانتيل ثوبها هي ..

أردت أن أوضح لها ان مسبحتي ليست ثمينة ، ولا أحملها تمشياً مع موضة سيدات المجتمع الأخيرة : موضة حمل المسابح الثمينة ...

ولكن صراخ الجمهور عاد فجأة يغطي الملعب البئر ..
صراخ مسعور ، ثم جانب المنصة القريب يتحطم ، ويسقط عن فيه من المتضاربين ، والذين حولنا بعضهم يتراكض للهرب ، وبعضهم يبدأ بالانضمام إلى المعركة .. المعركة : اصابــة .. لا ليست إصــابة .. اقتلوا الحَكَم .. احموا الحكَم :. فوضى .

من أجل اولئك بقيت بلا دار .

الدم على الأرض . صفير الشرطة . الرياضة . الحضارة . الدم . الدم . دوار . دم . دوار .. القاع .. انا وحيدة في القاع ..

وحيدة في القاع ...

القاع ملعب يفور الضباب من شقوق أركانه .. رؤوس متلاصقة طويلة الشعور وأيد تلوح ، طويلة الاظافر المعقوفة ، ثم يصرخون جميعاً مهللين . أنا في قاع البئر أتحرك على سطح الملعب .

يهتفون صارخين .. أسير خائفة مذهولة ، يتعالى الصراخ والتصفيق أقول لهم : « أنا مواطنة أبحث عن يقين ، مثلكم » . يتعالى الضحك ، ثم يدخلون الاسود إلى الملعب لتأكلني ، ثم أركض ، ثم أتعثر بجبات مسبحة (مفروطة) تنفقىء واحدة تلو الأخرى كالفقاعات ... هتاف الجماهير ... تنشب الاسود مخالبها العطشى للدم ... انفجر ضاحكة ، أضحك ، أضحك ، أضحك !..

ثم يد « ملاحت » تهزني ، وتتأمل ضحكي بدهشــة .. خرجنا من الملعب ونحن نتحاشى الكراسي المتطايرة .

ملاحت تتمتم : وحوش ! يسألونني لماذا أسافر إلى أوروبا وانفق نقودي هناك !.

وشعرت أيضاً بحقد عليها . أحسست انها بطريقة ما مسؤولة عما يدور .

أمام الباب كان فادي ينتظر . يبدو انني خرجت وما زلت متمسكة بمسبحة أبي لأن فادي تأملها لبرهة مذهولاً وأخذ ينقل نظراته بسرعة بيني وبين خالته ، ثم عادت نظراته لتستقر على وجهي بقسوة وفيها اشمئزاز وفجيعة العالم كله ... وازددت تمسكاً بحبات المسبحة ، وبيد « ملاحت » والتفت اليه فلم أجده) ...

« فادي . فادي ضحك . غضب . صمت . تحدث . فادي ، فادي ، كفى ... لا جدوى من هذا كله » ... صوتي يرن في غرفتي الفارغة ، وأشعر برغبة في متابعة الحديث ...

« فادي ، أحببتك . أنت وحدك تعرف كم أحببتك . فادي . أجل . وأنت أيضاً أحببتني . المأساة ان كلاً منا أحب الآخر على طريقته . أقسى جرائمنا كانت باسم حبنا . فادي » ..

صوتي ما يزال يرن ، وعبثاً أقاوم حاجتي في التحدث إلى نفسي بصوت عال .. إذن فقد عدت نهائياً إلى عادتي هذه ...

أول مرة سمعت صوتي يهرب من تجاويف رأسي إلى الخارج عالياً ، أصبت بذعر امرأة ولدت ماعزاً !

ثم الفت صوتي ، وأنست به ، وصرت أشعر انه لمخلوق آخر يعيش معي ، وانني لست وحيدة ما دام هنالك حوار .. وانني لست ميتة ما دمت أتحدث وأسمع صوتاً ما .. « فادي . يبدو انني سأعود إلى افيوناتي كلها . الليلة أيضاً لن أجد القدرة على

النوم إلا إذا ابتلعت مجموعة من الحبوب المنومة » .

افتح صنبور المياه الباردة على رأسي . ثم ثلاث حبوب منومة . « لماذا لا تستمرين في ابتلاع ما تبقى » ؟.. « ولماذا أستمر ؟ ما الفرق ؟ مجرد أمسية أخرى باردة ! » .. « جربي » « ليس هنالك ما يهزني بما فيه الكفاية لأموت . لا أحب نفسي بما فيه الكفاية لأنقذها بالموت ، ولا أكره شيئاً بما فيه الكفاية لأهرب منه بالموت » ... « لقد تعذبت يا تيما طويلاً حتى تقطعت أوتارك كلها وفقدت القدرة على استيعاب مأساتك » .. « فعلاً يا فاطمة .. لقد تعذبت طويلاً ، طويلاً وحوارنا الأخير لم يكن أكثر من قناع لالف حوار خلفه » ...

(صرخت مرهقة : فادي .. اني متعبة .. كفى !

وكانت تمطر بشدة خارج السيارة ، لكنه أصر على موقفه مؤنباً : ألا تريدين أن نجد داراً نستقر فيها زوجين سعيدين ؟.

— انها الدار الاربعون التي نزورها .. لا أستطيع أن أفهم معنى بحث هستيري كهذا ..

— ماذا تقصدين يا تيما ؟..

— أقصد أن المنطق في البحث عن دار يقتضي منا الجلوس خلف مائدة لنكتب على ورقة مواصفات الدار التي نريد، وفقاً لدخلنا ومزاجنا الشخصي ومكان عملنا .. أما أنت ، فكل ما يعنيك هو الدخول إلى أي بناء جديد لم يسكنه انسان من قبل ... وعلى جدرانه النظيفة التي لم يجف طلاؤها بعد ، علقت لوحة : « للايجار » . شهران ونحن لا نفعل شيئاً سوى الدوران في المدينة بحثاً عن لوحة « للايجار » ، ثم نصعد معاً لندور في

الغرف الفارغة .. انك تتلذذ برؤية البيوت فارغة وجديدة لم تتسخ بعد بأسرار ساكنيها ..

– ربما كان ذلك صحيحاً ...

– وأنا أخاف من البيوت الفارغة وأكرهها . لو لم يكن بيتي الذي أقطنه الآن مفروشاً لما استطعت أن أستوعب فكرة أن أكون فيه ..

وهبطت من السيارة ، وقبل أن أنطلق هاربة للمرة الأخيرة، سمعتني انتحب : انك تحب فكرة الدار ، ولكنك عاجز عن تحقيقها ، شيء اجهله ، يجعلك تمقت كل ما سبق لانسان أن مسه .. تظنه دنسه ...

وأنا أمقت فكرة الدار لكنني أريد أن أحقق بيتاً .

أنت أيضاً طفل ضال مثلي .. طفل آخر ..)

أمسية أخرى باردة ..

والحبوب المنومة لن تجدي الليلة .. أواه كم يريحني أن أتحدث بصوت مرتفع .. ربما كان هذا مصير الذين يقطعون جسورهم مع الخارج ...

« تيما ، هل أنت حزينة ؟ » .. « لست حزينة بالضبط يا فاطمة ، لكن الاشياء كلها امتزجت واختلطت وتشوهت .. أعصابي شبكة ممزقة ، فيها آثار حريق قديم لم تعد تذكر في أي كهف شب ، ولا كيف ومتى » .. « اسألي رف كتبك » .

اليوت يصرخ من دفتي كتابه : أنا انسان الأرض البوار .

كامو يئن : أنا الغريب .

سارتر : انا الاله .

كافكا : انا المحكوم سلفاً بلا جريمة ، أنا الصرصار .

ثم يصرخون جميعاً معاً وتنضم إلى الجوقة آلاف الصرخات، تمتزج ، تعول ، تهدر ، ثم موجة من الفقاعات ...

أليست لنا صفحاتنا ؟

رنين الهاتف .

من ؟

من يمكن أن يفكر بي ؟ منذ زمن طويل انعزلت ، وبيتي مجهول ، وهاتفي ميت منذ رحلت « ملاحت » وانطفأ فادي .

أغلق الهاتف ، وعبثاً أصدق بأن ما دار من حوار كان حقيقة .. إذن عادت ملاحت منذ دقائق .. انها تهتف من المطار .. سوف تجيء إلي قبل أن تمضي إلى بيتها ..

لقد نادتني « يا ابنتي » .. « يا ابنتي » الكلمة المجرمة .. لأن فادي كان يناديني « يا ابنتي » ، أشعر انني أكاد استعيد قدري على البكاء وأنا أسمعها ثانية .. حلقي يدمع في تشنج يؤلمني ..

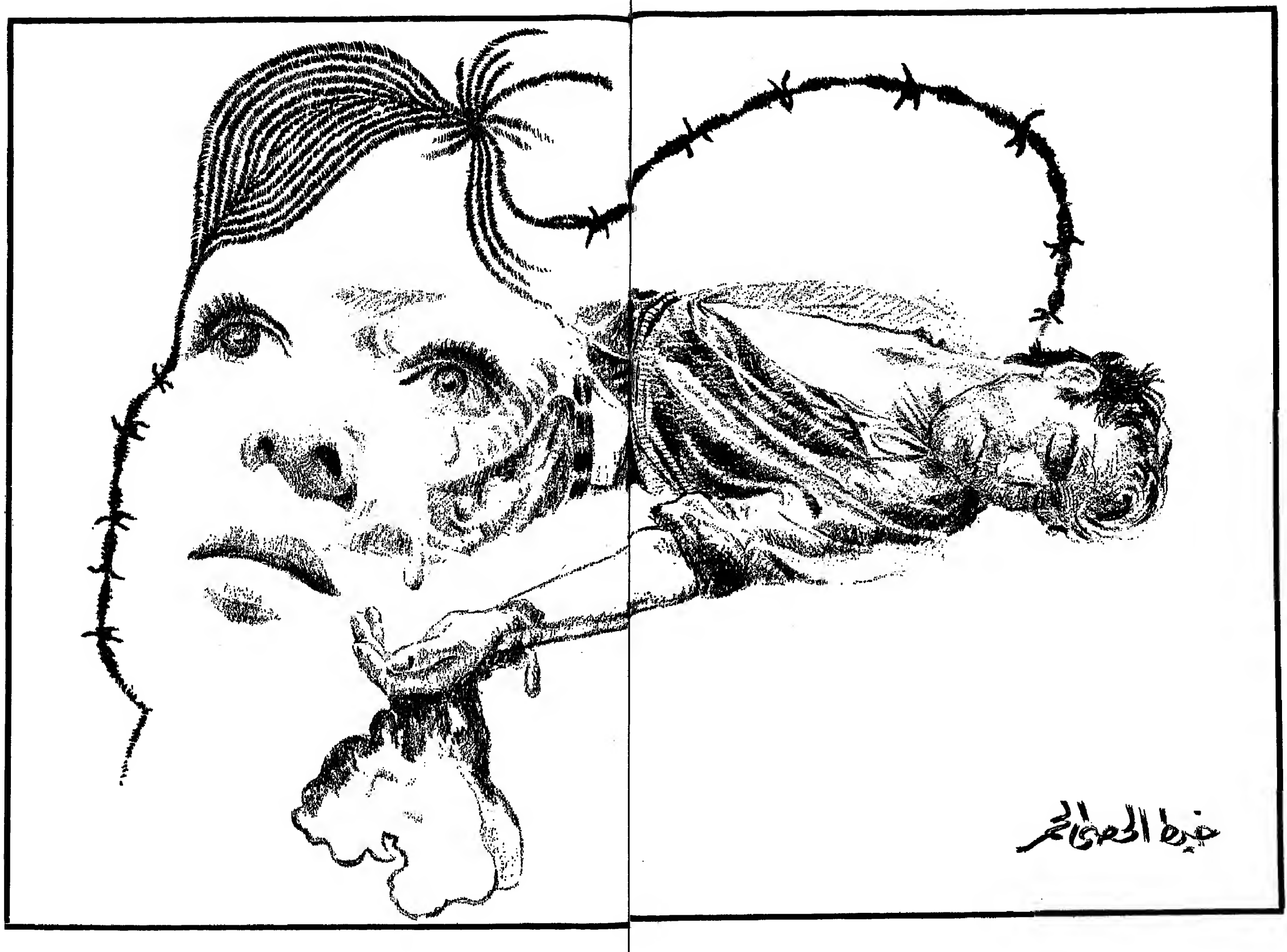
لم أكن أدري انني صغيرة هكذا ووحيدة إلا وانا أسمعها تقول « يا ابنتي » ..

سوف تجيء . لن أكون وحيدة الليلة.. لن أهرب إلى الشارع قطرة زئبق على مقاهي الارصفة ..

أفتح النوافذ . أرش بقايا زجاجة عطر . أنبش اسطواناتي المغطاة بالغبار . ارتب كل شيء في موضعه . أواه ، ماذا اهديها مقابل « يا ابنتي » وهي الثرية ؟.. مسبحة أبي ، ستكون لها .. الاسطورة الاخيرة الغامضة ، المختزنة ، ربما تفهمها ..

* * *

لن أذهب . لن لن لن .
لن ألحق بها كما طلبت . لن أذهب .
على المنضدة ، خلفت لي (مسبحتها) الثمينة بفقاعاتها التي تسطع تحت النور الميت .
وأنا بصعوبة أستعيد ما حدث .. الدهشة التي تربض على صدري أكبر من أي حزن أو تفكير .. أستعيد ما حدث بصعوبة .. وأظل عاجزة عن استيعابه ..
لقد منحتني (مسبحتها) قبل أن أمنحها مسبحة أبي . . ولكنها تريد شيئاً آخر ..
باشمئزاز من اكتشف ان في وسادته عش عناكب ، ألملم أطراف ثوبي حول رقبتي وصدري .. حبات المسبحة الثمينة فقاعات تنطفئ ..
أرتمي في فراشي فقاعة تنطفيء .. وقبل أن ينطفيء كل شيء في عيني ، أراها تدور بعصبية في غرفتها الفاخرة ، تدخن اللفافات ، وتتوقع أن يدفع بي بريق (مسبحتها) إلى باب المخدع ...
لن أذهب .
غداً ، غداً سيكون يوماً مريراً إن كان هنالك غد ...


خيط الحصى الحمر

ربما انقضت ساعة كاملة ونحن أمام البطن المفتوح .

من يدي يتناول مقصاً آخر . المشرط . يغيب بهما في أحشاء المريض . يعيدهما . ملقط . مقص . قطن . روائح الأدوية نفاذة . كلماته صارمة . ربما ستنقضي ساعة أخرى قبل أن ننتهي . البطن ما يزال مفتوحاً . تحت ملاءة بيضاء تختفي بقية جثة مريض ولا يبدو ظاهراً سوى رأسه عند الناحية الأخرى من المنصة .

لا أستطيع أن أستوعب ان هذا الرأس يخص هذا الجسد . وان هاتين الشفتين سوف تصرخان ألماً من أجل ذلك البطن المفتوح في الجهة الأخرى من المنصة .

هكذا الاشياء تبقى أبداً مفككة في عيني . يخيل إلي انني لو كشفت الملاءة البيضاء عنه لما وجدت تحتها شيئاً . مجرد رأس مقطوع مرمي على حافة المنصة ، وبطن هو آلة قائمة بذاتها ، تعلمنا كيف نعالجها بآلاتنا ما دام لكل شيء تسعيرته .

على أية حال ، فالأمر لا يهمني إلى درجة تدفعني إلى التحقق منه . لا شيء يعنيني كثيراً ..

مقص . ملقط . بسرعة . بسرعة . ممرضتان مساعدتان . تتأملاننا . نظراتهما تفيض إعجاباً بعبقرية الاخوين الطبيبين ، أنا وغازي ، والنجاح السريع الذي استطعنا تحقيقه « في خدمة الانسانية المعذبة » ...

بدأ بخيط الجرح . لماذا ؟ لماذا تحب الاحشاء أن تتقنّع باللحم والجلد ؟؟ لماذا يسارع الناس إلى ارتداء الاقنعة بحجة حفل « كرنفال ساهر » ؟ لماذا صارت حفلات « الكرنفال » الدورية التي أقيمها حديث مجتمع هذه المدينة وموضع إعجابه ؟ لماذا تتقنع لوحات صديقي الوحيد نادر بالجدران والباب المغلق أبداً ؟ الواقع انني أحب طرح الاسئلة على سبيل التسلية ، فلا شيء يهمني إلى درجة تدفعني إلى استقصاء الجواب .

تلك اللامبالاة ، لا أبالي كثيراً بالتخلص منها وإن كانت تحرمني أحياناً من أشياء ربما كانت ممتعة ، كالمشاركة في البكاء في المآتم ، والتحمس للقضايا السياسية في المقاهي ، وجمع المعلومات عن آخر حادثة طلاق في المجتمع ... عن طلاق سعيد وسميحة مثلاً ... أو اكتشاف سر مرسم « نادر » في تلك الليلة مثلاً !

(في تلك الليلة منذ أكثر من شهر ...

كما في كل ليلة ، جلسنا في مقهى التروبيكانا ..

كما في كل ليلة ، قال لي : « احبك » فضحكت لأنني لم أجد جواباً أكثر سخفاً أقوله !

كما في كل ليلة ، انطوى على ذاته وقد جرحه استخفافي ، وبدأ يجول بعينيه في المقهى بحثاً عن أي صديق يغرق معه في حديث سياسي عن بلده ، الذي غادره وزيراً متمرداً ، مصمماً

على العودة اليه وزيراً منتصراً .

ولكنه ، عاماً بعد عام ، أدرك ان مدينته التي غادرها لم تعد هناك . والرفاق بيع منهم من بيع ، وتشتت من تشتت ، وتبدل من تبدل ..

لقد استطعت إدراك ذلك كله من أحاديثه مع رفاقه ، ولكنني لم أشعر أبداً بأية رغبة في سؤاله عن التفاصيل ، أو حتى عن اسم مدينته – كنت أعرف انها لا بدّ من أن تكون ، واحدة منهن ، عربية !

عاد يكرر : أحبك ...

ولكنه كان جالساً أمامي على مقعد مستقل ، وكان على المنضدة فنجانا قهوة لا فنجان واحد ، فعدت أسأله : ما معنى انك تحبني ؟

قال : معناه انني أرغب في أن أكون وإياك شيئاً واحداً !

عدت أتأمل فنجاني القهوة المستقلين ، بينما عاد يتمم حديثه ، قال :

كلانا لاجىء . الحب وحده هو البديل ، هو وحده يستطيع أن يسبغ على بيوتنا الميتة صفة الوطن . هل تفهمين ؟ الحب وحده خيام سعادة لجيلنا الممزق .

قلت : لا ... كيف يمكن أن أكون وإياك شيئاً واحداً ؟

قال : بأن امنحك أعماقي – أسرار بيتي وأسرار عمري . بأن أعري أعماقي لك كماض ، وأعري وجهي لعينيك كحاضر وكمستقبل ، فأبكي أمامك بلا خجل أو اشمّ ، أو أغني كطفل ... وبأن تحدثيني عن حياتك الحقيقية الداخلية .

قلت : انك تعرف كل شيء عني !

قال : أعرف ما يعرفه الناس . ذلك لا يعني شيئاً . أعرف انك فلسطينية المولد ، انك عشت حياة قاسية مع شقيقك في أحد المستشفيات النائية حيث استطاع ان يجمع مبلغاً كبيراً من المال بمعونتك ، بعد أن كد وحيداً أعواماً لينفق على دراستك . وانكما الآن ثريان وناجحان ، ومن نجوم مجتمع هذه المدينة . هذا كل ما أعرفه ...

قلت : هذا كل ما أذكره أنا أيضاً !

قال : أريد أن أمنحك ذاتي دهليزاً بعد الآخر ... سأبدأ بمرسمي ... انه مكان لم يطأه انسان من قبل — فيه سر لم أبح به لمخلوق — انك منومة مغناطيسياً ، وربما ينقذك الحب .

ولما كانت أنفاسي قد ضاقت فجأة ، قبلت بالذهاب معه إلى مرسمه الذي يسميه بكهفه ، وفرح لأنه ظنني راغبة بذلك .

في الشارع كان الليل دافئاً وفي الاعلى ذلك القرص الابيض البليد — القمر !

قال : ما أجمل القمر ... طالما عايشت صورته الحلوة في نهر مدينتي ، وسمعت الناس ينشدون له .

وتماسكت كي لا أقول له : لا يهمني ان أتذكر أي شيء .. وأعتقد ان القمر يشبه رأساً صلعاء مصابة بالبرص !

في ردهة مرسمه ، وقف أمام باب آخر مغلق ، وقال : الآن سأفتح لك باب كهفي !

وكنت أحمل بيدي فنجان قهوة أعده لي بنفسه فور وصولنا لقد كانت القهوة الشيء الوحيد الذي يثير اهتمامي ...

وبحركة مسرحية ، فتح الباب وقال : ادخلي ..

ورأيت خلال الباب المشقوق في الضوء المتسلل الشاحب ،

غرفة عارية تماماً من أي أثاث . وعلى جدرانها عدد من اللوحات المتساوية الحجم تماماً ، والمصفوفة بانتظام تام ، مما جعلني أتثاءب وأشعر بالنعاس . وأردت أن أترك فنجان القهوة على المنضدة لاسترخي فوق أول مقعد . ولعل يدي ارتجفت حينما سمعت صوته يدوي بوحشية صارخاً : ادخلي ... اني أمنحك كنوزي ، لنكون شيئاً واحداً !

وكانت القهوة الحارة تندلق على يدي وتلهبها ، وهو يكرر لنكون شيئاً واحداً !

لا أدري لماذا وجدتني أصرخ مثله : لا أحد يستطيع أن يكون شيئاً واحداً مع آخر . القهوة اندلقت على يدي ، فأحرقت يدي أنا ولم تحرق يدك ، وآلمتني أنا لا أنت . وكنوزك لك ولا تهمني كثيراً لأنها لا تملك لي شيئاً ..

ورأيت مسامه تتعرق بأسلوب يذكر بالبكاء . فلم أقل شيئاً. وسمعته في الحمام يفتح الماء بشدة ، ثم عاد والماء ما يزال يقطر من وجهه . ولاحظت انه قد غسل أشياء كثيرة من ملامحه ، إذ ان وجهه لم يعد يعبّر عن أي انفعال ، ولا أدري لماذا أحسست انه صار يشبهني كثيراً برغم عينيه الخضراوين الكبيرتين .

أغلق باب الغرفة . قال بتهذيب محنط يشبه كثيراً لهجتي في الحديث : هل ترغبين في الخروج إلى العشاء ؟ لا طعام لدي هنا ..

ولما لم أكن جائعة ، شكرته ، وقلت له انني سأذهب لزيارة سعيد وسميحة لأنني سمعت بأن طلاقهما قد تم البارحة .

وسألني باللامبالاة نفسها : هل سميحة هي التي كانت ترافقك أحياناً إلى مقهى «الترويبكانا» ؟

قلت : أجل ، هي زوجة المليونير سعيد وكانت ذات يوم بائعة في أحد المخازن الكبرى تطيع إشارات أيدي الزبائن حتى تم زواجها من سعيد !

وحينما خرجت من كهفه ، عدت أشم في الشارع رائحة الوباء والادوية . في كل مكان أشم رائحة وباء غامض ، أنا متأكدة من انه يجتاح المدينة وكل مكان ، وانه لا بدّ وأن يستيقظ الناس ذات صباح وقد أدركوا هذه الحقيقة مثلي !

ولم أذهب إلى دار أهل سميحة المتواضعة ، لأنه لم تكن لدي أية رغبة في اذلالها أو ايلامها ، وكل ما كان يهمني من أمرها هو أن تظل قادرة على مرافقتي إلى «الترويبكانا» حينما أرغب في ذلك !)

يسحب أخي غازي الغطاء الابيض على البطن التي تمّت «خياطتها» وتعقيمها ، وتلتمع عيناه ببريق مضيء وهو يقول : تمت العملية بنجاح والحمد الله ..

يخلع قناعه . يخرج من الغرفة وهو يناديني : تعالي يا نادية لقد تأخرنا !..

* * *

يقولون ان غازي يقود سيارته بسرعة . لا ألحظ ذلك . ربما كان عدادها الذي يشير إلى المئة فما فوق أكثر ادراكاً مني لهذه الحقائق . الآلات أكثر صدقاً ودقة . أخي آلة نادرة ، ولو لم أره منذ خمسة أعوام يبصق دماً في ذلك المستشفى القاحل

في ذلك القطر البعيد . لما صدقت ان العطب يمكن أن يصيبه . اذكر انني يومئذ كنت ما أزال قادرة على البكاء والألم والمحبة. لم أكن كما أنا الآن . اذكر انني يومئذ ...

(عدت اليه أحمل أشياء كثيرة أود لو أعرف كيف أقولها .

كنت ما أزال يومئذ أتحدث عن المبادئ والمثل المتداولة في السوق العربية . ممتنة لما فعله من أجلي ومن أجل بقايا أسرتي التي ما زالت في بقايا القدس : جدتي العجوز ، أبي الكسيح ، أمي واخواتنا الصغار ... وأعينهم المسمّرة على الاسـلاك الشائكة ...

ولما شاهدت الشمس المحرقة ، المناخ القاسي الوحشي ، العمل ، العمل ، العمل ليلاً نهاراً ، المرضى ، يتساقطون في كل مكان ، غرباء لاجئين جاءوا بحثاً عن الرزق إلى بلاد لم يألفوا قسوتها ، جيوبهم خاوية وصدورهم خاوية إلا من المرض والذكرى ، لما شاهدت هذا كله لم يدهشني أن أرى أخي الطبيب يبصق دماً من وقت إلى آخر في منديله بعد أن يتلفت حوله ويتأكد من أن أحداً لا يراه .

وتظاهرت بأني لم أره . ولكنني ليلتئذ بكيت للمرة الأخيرة في حياتي ثم اختلطت الاشياء . ثم صرت مثله : انه آلة تعمل بلا تفكير . ثم اكتشفت انه ما زال يفكر ، وانني لن أبصق دماً مثله ، لأنني كففت تماماً عن المبالاة بأي شيء ! حتى رائحة الوباء التي أشمها أينما تحركت ، لم تعد تضايقني .)

في الساحة الحلوة أمام دارنا الكبيرة يوقف أخي السيارة . يسعل . أشيح بوجهي عنه كي أمنحه الفرصة ليدفن الدم في منديله بسلام .

كلانا اعتاد هذا الفاصل من السعال الدامي . نعيش كأنه غير موجود . كلانا يتجاوزه . وهو يطوي منديله قال : نادية هل كل شيء جاهز ؟

– طبعاً ... بعد ساعة ستكون الساحة مزدحمة بالسيارات ... والبيت بأقنعة الضيوف :

فأجاب : الضيوف والاقنعة لك ... كل ما يهمني أن يكون صوت الموسيقى عالياً عالياً ، بحيث لا أسمع صوت مـدافع العيد !

– لماذا ؟

– لأنني لا أريد أن أسمع صوت مدافع العيد !..

ولا أدري لماذا تذكرت حديث « نادر » عن القمر والنهر في مدينته ، وكدت أنفجر ضاحكة لو لم يسعل غـازي من جديد !

* * *

الدار ، حظيرة أصوات مختلفة تنبعث من تحت أقنعـة مختلفة ... شيء يشبه الضحك ، والحوار ، والموسيقى والترحيب والهمس ..

أنا وغازي اخترنا أقنعة القراصنة . ننتهي من تنكرنا قبل وصول ضيوفنا سادة المدينة ..

ليس من الصعب علي أن أميزهم رغم أقنعتهم . فوجوههم لم تكن قط حقيقية كما هي اليوم . ها هو النائب الكبير السيد فوزي في قناع نعامة ، زوجته في ثياب جارية تراقص سفيراً

في قناع بهلوان . مشاهد ممتعة حقاً . السيد سعيد مع عشيقته الجديدة في زي لاعب كرة قدم ترافقه غجريته ، وزوجته المطلقة سميحة في زي الارملة الطروب وقد أخفت وجهها تماماً. ألحظ ان « نادر » لم يحضر . كنت أتوقع ذلك فقد صار يشبهني كثيراً بلامبالاته !

سعال غازي : هل أنت بخير ؟

ـ أجل ... ارفعي صوت الموسيقى ، لا أريد أن أسمع صوت مدافع العيد !..

ـ ما زال الوقت مبكراً ...

ـ من يدري ... ربما فاجأتنا !.. سوف أنسحب بعد أن يعلن العيد لأنام ، لأن علينا أن نلحق بالطائرة غداً باكراً ...

ـ انها المرة الأولى التي أزور فيها أهلنا والقدس منذ عشرة أعوام يا غازي ...

ـ أما أنا ، فلولا هاتف جدتي ، تلك العجوز العجيبة ، لولا صوتها لما ذهبت قط إلى هناك ... فهم بحاجة إلى نقودنا . . وأخشى لو ذهبت لما عدت ..

يغرق في نوبة سعال حادة . أتركه إلى إحدى الحلقات التي كان أصحابها يتحدثون بحماسة كبيرة رغم الصخب .. زوجة وزير كانت أعز صديقة لسميحة هي التي تدير الحديث ، وترشق الوقود من وقت إلى آخر كي لا يخمد . تقول : أنا ، أعزّ صديقاتها ، كانت تغار مني لو صافحته .. أليس كذلك يا سعيد بك ؟

وتنجدها متصابية ، شعرها الاصطناعي جميل جداً. فتصرخ : وكانت إذا جاءت إلى الحلاق تطلب منه أن يترك الحاضرات كلهن ويمشطها لأنها حرم سعيد بك !

ويتدخل مستوزر : كنا لا نجرؤ على زيارة البيك ...

وعرفت فيه المستوزر الذي كان معروفاً بتعلقه بها ...

وتتسارع الاصوات وتتشابك : « وكانت قذرة ... وتهمل أولادها ، ولا تعرف كيف تتصرف في المجتمع الراقي ...

ويتحرك شبح امرأة جاءت في ثياب الارملة الطروب منسلاً من القاعة . الحق بها : سميحة ... إلى أين ؟

أدرك انها تبكي رغم قناعها . تهمس بمرارة : كانوا جميعاً يتملقونني . ليس فيهم من لم يأكل على مائدتي ... والآن !

نخرج . بالنسبة إلي الأمر عادي جداً ومتوقع . . لماذا لا يدركون جميعاً ان الوباء قد سرى وانتهى الأمر ، وليس هناك ما يدعو إلى الحزن أو الفرح ، أو حتى التمرد ؟

الموسيقى ؟ فلتصرخ !

وقع أقدامهم على الأرض ؟ فليصبح مسعوراً !

أحاديثهم ؟ فلتعل ، ولتعم الفوضى ، كي لا يسمع غازي مدافع العيد ما دام لا يريد ذلك !

أنا وأخي آلة متضامنة وانصياعي لبعض رغباته آلي ، لا دخل له بعواطفي الميتة أو رغباتي المحنطة ..

فجأة ، تنطفئ الانوار كلها .. تصمت الموسيقى دفعة واحدة ، ومعها تسكن أقدام الراقصين وتتوقف الأحاديث .. أصوات احتجاج مختلفة شبه هامسة .. ماذا حدث ؟

انقطع التيار الكهربائي .. خطى تتسارع إلى النوافذ تزيح

الستائر . الحي كله مطفأ . غازي يتجه نحو النافذة ليتأكد مما قيل . نسمع طلقة المدفع الأولى . أراه ينتفض كأنما تلقاها رصاصة في ظهره ... تتوالى طلقات المدافع وتتساقط أضواء الشموع التي توزعها الخادمات في القاعة على وجوه ضيوفنا الباشّة ، وعبارات التهنئة المتناثرة مع أصوات القبل : عيد سعيد ...

ويجيب غازي بنوبة سعال ، أما أنا فلا أفهم عن أي عيد يتحدثون !

لولا ان جدتي أيام كانت قادرة على السفر ، كانت تلاحقني من مدرسة داخلية إلى أخرى من عيد إلى آخر ، لما سمعت عن العيد إلا من الصحف .

بل انني ظللت سنوات عديدة أظن العيد رجلاً متكبراً ، لا يزور إلا الأطفال الذين لهم أم وأب ، والبيوت الفخمة . أما الخيام ، والضائعون ، فالعيد يكرههم لسبب أجهله ، ولا يمر ببابهم .

ذلك كله لا يعني أي شيء لدي .. وحينما أذكره ، يغمرني ذلك الشعور باللامبالاة ، الذي يرافق استعادتنا لفيلم عتيق نسيناه !..

* * *

الأنوار مطفأة . الشموع تضيء متعبة متهاوتة . تزيد رعشاتها من اهتزاز الظلال في قسمات وجه غازي المتشنجة المتعبة . لقد ذهب الجميع ...

لا أشعر برغبة في النوم . سأخرج قليلاً بسيارتي لأنني أحب

أن أسمع صرير العجلات حينا أضغط على الكابح . يضايقني أن يستوقفني غازي لأنني لا أرغب الليلة في مزيد من النظر إلى وجهه . يهتف : نادية !

— ماذا بك ؟... لماذا لا تدعني وشأني وتحلق ذقنك الطويلة التي حرمتها من الموسى بحجة التنكر بزي قرصان ؟

ضحكة مغتصبة . سعال . يهمهم كما يفعل الناس الذين يظنون أن لديهم شيئاً هاماً يتحدثون عنه ويستعدون لذلك .

لم يخطئ حدسي . يقول : هل أنت ذاهبة لرؤية نادر ؟

— نادر ؟ لم يخطر لي ذلك . ولكنها ليست فكرة سيئة !

— نادية ... تعرفين انني لم أتدخل أبداً في حياتك . . . ولكن ، ألا تشعرين اننا كالطحالب وحياتنا بلامعنى ولا جدوى ؟

— لا أشعر بشيء ...

— ألا تشعرين بأننا نشتري كل شيء بالنقود التي نقبضها ثمناً لبيعنا المستمر لنفوسنا ؟ اننا بحاجة لارتباط حقيقي ...

— لا أشعر بشيء ...

— علاقتنا بما حولنا مفتعلة وقائمة على الظرف الحالي لا على رابط انساني مشترك نلتف حوله أبداً ...

— لا أشعر بشيء ...

— وماذا بعد ؟ سوف أظل أبداً هكذا ... أبداً هكذا ... اني متعب ، وسئم ، والقرف يقتلني !

— لماذا لا تحلق ذقنك ؟ قد تتحسن حالتك ، أو تنتحر مثلاً إذا كان الأمر كذلك ، لماذا لا تنتحر ؟؟

يدهشني أن أراه ينهض نحو الحمام ، أتبعه وشمعة أخرى في يدي . يدلك ذقنه وهو يتمتم :

– لم يعد لهذه الحياة المشردة معنى ... تحولنا إلى آلات تتسول جنسية ومجتمعاً . في مثل هذه الليلة ،في مثل هذا العيد ، اواه لا أجرؤ على الذهاب إلى هناك ... القدس . سوف أرقبهم جميعاً ولا أملك لهم شيئاً . لا أملك شيئاً لجرحهم المفتوح .

أتركه يدمدم . أخرج بسيارتي إلى الشوارع التي لما تفرغ بعد . ما زالت بعض المخازن مضاءة . غداً يحتفلون . لقد كبرتُ في أجواء علمتني إنه لم يبق لنا ما نحتفل به أو نحزن من أجله !

لم يبق هنالك ما يناقش أو يكافح . الوباء الغامض لا أعرف اسمه ، أحسه في المدينة ينتقل بين الجميع ، ويدهشني أن أحداً فيها لم يشاركني فرحتي يوم رأيت مفارز التلقيح الاجباري تجوب الشوارع .

إلى أين أذهب الآن ؟

لا يهم ما الفرق ؟ لا أذكر انني سمعت من حديث غازي الأخير سوى اسم نادر ، نادر ، لا بأس ، سأمر بكهفه المهجور قليلاً !

* * *

ضربة واحدة على الباب . صوت حركة غير عادية في الداخل الباب لا يفتح وخطى راكضة في الداخل . الأمر لا يهمني . سأعود إلى سيارتي وأنا أهبط الدرجات الأولى بتكاسل ، أراه يفتح الباب :

– نادر مرحباً !

– أهلاً ... تفضلي ... ما هذه المفاجأة ؟

على وجهه لا يبدو أي أثر للمفاجأة .. وكلماته عادية لا لهفة فيها ولا تخوف . وعدت أصعد الدرجات القليلة لأنني أشعر برغبة في تناول قدح من القهوة ، وهو يتقن اعدادها ..

ادخل ... على أحد الكراسي قناع « الارملة الطروب » وقد علق بالباب الذي يفضي إلى الحمام جورب أسود ، وتشويش الردهة ، وكؤوس الويسكي شبه الفارغة ... وفهمت بسرعة !

المشهد عادي وسخيف ومكرر لا يثير أكثر من مللي !

نادر في المطبخ يعد القهوة . باب كهفه المقدس مفتوح . ربما في الداخل شيء آخر مثير يطرد مللي . أتثاءب وأنا أرى اللوحات إياها مرصوفة بالنظام نفسه . أضيء النور . ربما كان فيها ما يدفع النعاس !

أرى في الغرفة ذات الجدران الأربع ٢٤ لوحة . ست لوحات لكل جدار . كلها نسخة واحدة لوجه انسان هو نادر . كلها متقن ورائع انه يرسم نفسه . لا يقدر إلا على رسم نفسه . فكرة حسنة ، غداً أدفع عن نفسي الملل بها !

رائحة القهوة . نادر أمام الباب . يتحدث بهدوء تام كأن الأمر لا يعنيه : تفضلي قبل أن تبرد القهوة !

أعود إلى الردهة . أفكر بسميحة التي لا بد انها ستصاب بالبرد في الحمام .

ــ نادر لماذا لا تسكب لها فنجاناً آخر وتناديها ؟

ــ آه .. فعلاً ... لقد نسيت انها في الداخل !

نضحك معاً . ينهض نحو باب الحمام ويفتحه قائلاً : تفضلي يا سميحة وشاركينا القهوة !

تخرج مشعثة الشعر ذليلة التعابير . فجأة تتنمر ، تنشب أظافرها في وجه نادر وترميني بنظرات نارية صارخة : أيها الحقير .. وثقت بك وجئت وها أنت تستهتر بي !

لا أستطيع أن أفهم سبب ثورتها . أحسها هاربة من مسرح ما وقد تلبسها دورها فهي تمارسه في كل مكان بمناسبة وبلا مناسبة . نادر أيضاً يبدو على وجهه انه لا يستطيع أن يفهم ، لكنه يحدثها بلغتها مهمهماً : لكنها صديقتك ...

تصرخ في وجهينا كساحرة : كلاكما لاجئ حقير .. لاتفهمان ظروف أبناء المجتمع ... كلاكما لاجئ حقير ... حاقد ، بلا ضمير !

ولما قلت لها ، ان لا تنسى ارتداء جوربها ، ظلت تردد : كلاكما لاجئ ... بلا ضمير !

• • •

أمام الدار ، في الساحة الكبيرة التي عادت شبه فارغة ، أترك سيارتي . أضغط زر الكهرباء ، تسطع في الدرج . إذن أستطيع إعداد حقيبتي في الليل ما دام غازي قد قرر أن نرحل غداً إلى القدس ..

ماذا سأجد هناك ؟ لا أتوقع أن أجد أي جديد في أي مكان، لذا لا شيء يثيرني .

أدخل إلى غرفتي وللمرة الأولى لا يرافقني سعال غازي . جدتي يجب أن لا تلحظ انه يبصق دماً . هذه المرأة وحدها تضرب في أعماقي وتراً مبهماً لما ينقطع بعد لكن أصداءه تنطفىء لحظة بعد لحظة في داخلي ...

سأذهب إلى غرفة غازي لأسخر قليلاً من ذقنه المحلوقة وأطلب منه أن يوقظني صباحاً !

أدخل إلى غرفته ، وأضيء النور . الفراش لم يمس . اقترب من الحمام . وفي النور الساقط إلى الداخل ، أرى غازي ممدداً على الأرض يسبح في بركة من سائل أحمر . أضيء النور . أتقدم منه . وجهه مصلوب نحو السقف ، نصف ذقنه محلوقة والموسى قد مزق بها شرايين يده بوحشية وشدة ، والجسد كف عن النزف .

وحتى البالوعة شربت من الدم ما تستطيع امتصاصه ..

لم يبق ما أستطيع أن أقوم به ...

وأنا أوقظ الخدم ، كان حسد كبير يأكلني للمرة الأولى ...

شعرت انني أغار من أخي . لا ريب في انه كان قد أحب شيئاً كبيراً ورائعاً بما فيه الكفاية لأن يقطع شرايينه لما فقده ...

وهم يخرجون بجثته من الدار عاودتني غيرة مريرة منه ، فقد أدركت انه بطريقة ما استطاع أن ينجو من الوباء .

• • •

القدس .

وبصوت مسرحي اعتاده سائق التاكسي الذي ينقل السياح من المطار إلى فنادقهم يقول : هذا الخط يفصل بين القدس المحتلة والقدس العربية ..

وتذكرت بكاء جدتي لأن دار عمي تقع خلف الخط ، وتمنيت أن لا تكون في الدار كي أجد القدرة على ان أقول لهم

ان غازي انتحر !

أجدني أغمغم : وإذا تصادف ان دار انسان ما تقع خلف الخط واشتاقت عجوز إلى رؤيته .

يقول وقد استحال فجأة إلى شخصية مأساوية تخرج من بين دفتي كتاب أخفيته طويلاً في أظلم ركن في ذاكرتي : يعودون به ورصاصة في صدره .

بالضبط لا أدري ما الذي يضرب على وتر منسي في أعماقي. ربما كان مشهد ذلك الفيلم الغريب الذي يلوح بين الغسيل المنشور ، ربما كانت الأرصفة التي طالما تعثرت بأحجارها ... ربما كانت رائحة الملح والزيتون في الصخور !

لا أعتقد ان نبأ انتحار أخي قد بلغهم بعد ، ومع ذلك أدخل الدار ، ولا أدري لماذا أحس انني ارتكبت جريمة بطريقة ما ، ولا أتوقع من أحد أن يسارع إلى استقبالي ، لذا لم يدهشني ان الوجوه كلها كانت حزينة وباكية ، وان واحداً لم يفه بحرف واحد . كانوا يرفعون وجوههم إلي واحداً بعد الآخر .

بصمت دامع ... أسير في الغرفة محاطة بهذا الموكب المرعب ... لا أدري لماذا تقودني نظراتهم إلى الداخل . أحس ان في الداخل مقصلة ، ويجب أن أدخل ، وأن أتركها تسقط على عنقي . في الداخل ، كانت عجوز ممددة على الفراش ورصاصة ، في صدرها . جدتي .

ولولا الابتسامة التي طالما رأيتها على شفتيها وهي تحمل إلي الحلوى في اعياد غابرة لما سألت : لماذا ؟ كيف ؟ ... لمن

كانت تحمل الحلوى هذه المرة ؟

ربما كان صوت أبي : إلى دار عملك خلف الاسلاك الشائكة ... كل عيد ، تغافلنا وتود الذهاب ... وتقول ان الرجال ماتوا والجيل الجديد «مفسود» ولم يبق إلا العجائز !

من النافذة ، أستطيع أن أرى ذلك العلم الغريب بين الغسيل المنشور . انهم يتابعون حياتهم العادية بسلام .. ونحن .. نحن وهنالك جدار الرصاص ... ربما كان خيط رفيع من الدماء على التراب بين عتبة دارنا وذلك الجدار ...

واذكر اسطورة من أساطير جدتي . قال ان أطفال الغابة لما ضلوا طريقهم ، استطاعوا العودة مسترشدين بخيط من الحصى خلفته لهم جنية تحبهم ولا تنسى ، وتعرف كل شيء ...

المشاهد كلها تغيم ، وخيط الدم هذا أراه الآن بوضوح ، خيط من الحصى الارجوانية الثمينة في عتمة الغابة ، ممدود نحو تلك الأرض العتيقة .

تُرجمت هذه القصة إلى الفارسية

فهرست



منشورات غادة السمان

قصص وروايات

عيناك قدري (قصص) - (الطبعة العاشرة)

لا بحر في بيروت (قصص) - (الطبعة التاسعة)

ليل الغرباء (قصص) - (الطبعة الثامنة)

رحيل المرافئ القديمة (قصص) - (الطبعة السابعة)

بيروت ٧٥ (رواية) - (الطبعة السادسة)

كوابيس بيروت (رواية) - (الطبعة السابعة)

ليلة المليار (رواية) - (الطبعة الثانية)

حب (الطبعة التاسعة)

أعلنت عليك الحب (الطبعة التاسعة)

غربة تحت الصفر (الطبعة الثانية)

الأعماق المحتلة (الطبعة الثانية)

أشهد عكس الريح (الطبعة الثانية)

القمر المربع (قصص) - (الطبعة الأولى)

عاشقة في محبرة (الطبعة الأولى)

شهوة الأجنحة (الطبعة الأولى)



منشورات غادة السمان

الأعمال غير الكاملة

زمن الحب الآخر (قصص) - (الطبعة السادسة)

الجسد حقيبة سفر (الطبعة الرابعة)

السباحة في بحيرة الشيطان (الطبعة الخامسة)

ختم الذاكرة بالشمع الأحمر (الطبعة الخامسة)

اعتقال لحظة هاربة (الطبعة الخامسة)

مواطنة متلبسة بالقراءة (الطبعة الرابعة)

الرغيف ينبض كالقلب (الطبعة الثالثة)

ع.غ. تتفرس (الطبعة الرابعة)

صفارة إنذار داخل رأسي (الطبعة الثالثة)

كتابات غير ملتزمة (الطبعة الثالثة)

الحب من الوريد إلى الوريد (الطبعة الرابعة)

القبيلة تستجوب القتيلة (الطبعة الثانية)

البحر يحاكم سمكة (الطبعة الثانية)

تسكع داخل جرح (الطبعة الأولى)

مطبعة دار الكتب ساحة رياض الصلح بناية اللعازارية تلفون: ٦٤٥٠٣٩ (٠١)



● «تتفوّق غادة السمّان على نفسها وعلى الكثيرات: ذلك أنها لم تكتف بأن تكون كاتبة نسائية، ولكنها استخدمت مأزق المرأة العربية الذي تستشعره كأُنثى وتعيشه على ذلك «الجسر» المرير - الجسر بين عالمين وعصرين، ومنطق «جيل الجسر» الذي تستشعره غادة بوضوح صاعق - لتعبر عنه ككاتبة ممتازة».

غسّان كنفاني

● «غادة السمّان ثورة في الأدب النسائي، وتتمتع بفصاحة عربية منقطعة النظير».

يوسف إدريس

● «ليل الغرباء» عمل أدبي عزيز عن قضية قومية عزيزة هي فلسطين، ولكنه في الحقيقة يمتد ليصبح عملاً أدبياً عن القضية العربية كلها، يرتعش بالمحبة الصافية الصادقة لها، والوعي العميق بأبعادها الأصيلة. وهو إلى جانب هذا كله عمل أدبي جاد يستحق التقدير.

محمود أمين العالم

● «قصص «ليل الغرباء» طرقات على باب الأدب العالمي»

جلال العشري

● «في «ليل الغرباء» يشعر القارئ انه يسير على جمر ملتهب من أول سطر إلى آخر سطر. لغتها أدبية رفيعة، وألفاظها مدببة جارحة، وأسلوب غادة احتراق ومعاناة ولهاث».

مصطفى محمود



To: www.al-mostafa.com